المبحث الثاني

إشكالية مصطلح العلمانية

وعلى أساس ما سبق نستطيع أنْ نحدد أسباب ونتائج لإشكالية مصطلح (العلمانية) من منظور إسلامي:

المطلب الأول: أسباب إشكالية مصطلح (العلمانية)

أ - الأسباب الدلالية لإشكالية المصطلح:

١ - سبب يتعلق بالمعنى المعجمي والمعنى الاصطلاحي

إنّ الجهة التي يجب أنّ تبتّ في تحديد معنى العلمانية هو المفهوم المصطلحي وليس المعنى المعجمي، فمن الجناية على الحقائق ما جرى في ترجمة (secularism) إلى مقابل مشتق من العلم، رغم أنه يعني بالضبط (اللادينية)، وهذا ما أثبتناه في بداية هذا الفصل[١].

٢ - سبب يتعلق بالدلالة الاجتماعية وتكوينها والدلالة العرفية

فالدلالة التراكمية الاجتماعية لمصطلح العلمانية التي اكتسبها مما مرّت به الشعوب الأوروربية من تجارب في الأحداث التي أكسبتها ظلال دلالية متعلقة بعرفية هذه الظلال في الجو الأوروبي فالإشكالية الدلالية هنا تكمن حين يقحم الجهاز الدلالي المصطلحي للعلمانية ضمن دلالة عرفية واجتماعية غريبة عن هذا الجهاز أو هو غريب عنها ضمن علاقة الدوال بمدلولاتها في النطاق المعرفيّ في اللغة[٢].

---

(١) سفر الحوالي: **العلمانية**. ٢١ ومابعدها. وعبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني: **كواشف زيوف**. ١٦٣.

(٢) ورغم ذلك فإنّ الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله يرى أنه لا مناص من استخدام مصطلح العلمانية؛ لأنّ هذا المصطلح قد أحرز شيوعاً غير عادي بين دعاة العلمانية وأعدائها، وبين أعضاء النخبة والجماهير على حدٍّ سواء، فالبدء من نقطة الصفر مسألة مستحيلة في مثل هذه الأمور، وما يقترحه الدكتور المسيري هو أن نلجأ إلى إعادة تعريف مصطلح (العلمانية) بحيث يصبح مجاله الدلالي أكثر اتساعاً وشمولاً ووضوحاً.

انظر: عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٥١.

٣ - سبب يتعلق بترجمة دلالة المصطلح، والنقل من لغته الأصلية

فممّا لا شك فيه أنّ مصطلح (العلمانية secularism) يحمل قسطاً كبيراً من اختلال في مجاله الدلالي في لغته مع اللغة المنقولة إليها باعتبار أنّ اللغة محكومةٌ بما تعارف عليه ناطقوها ورسموها من مجالات دلالية تحتكم فيه العلاقة بين الدال والمدلول على سير العملية الدلالية وانسيابيتها ضمن الخصوصية النوعية لكل أمة، ثم اختلاف السياقات التي وردت فيه كلمة (secularism) مع ما نقل إليه في اللغة العربية مثلاً (العلمانية) سواء كان العلمانية مشتقة من (العِلم) أو (العالم) فإنّ المعنيين مقحمان قسراً للتعبير عن (secularism)، ولا يعنيان بالضبط ما يعنيه الأصل الأجنبي (secularism). إضافة إلى المألوف الثقافي والاجتماعي بين اللغتين اللاتينية (secularism) واللغة العربية (العلمانية)[١].

٤ - سبب يتعلق بسيرة مصطلح (العلمانية) ودلالته في مراحل نموّه

إنّ تناسي القيمة الدلالية لمراحل سيرة مصطلح (العلمانية) يؤدي إلى إشكالية بيّنة في التعامل الدلالي لمفهوم (العلمانية)، باعتبار أنّ مصطلح (العلمانية) له نشأة وميلاد في بيئة معينة، فالإشكال الدلالي واقعٌ لا محالة حين يعمد إلى استخدام هذا المصطلح ضمن مرحلة معينة من مراحل عمره دون النظرة الشمولية لما أحدثته فيه سيرته الطويلة في البيئة المولدة فيها. باعتبار أنّ هذه المصطلحات الوافدة لها سِيَرٌ معقدة ومتشعبة من دلالة في عصور مختلفة[٢].

٥ - سبب يتعلق بوضوح وغموض الدلالة في مصطلح (العلمانية)

فما أتت به العلمانية لا يتطابق مع مسلماتنا الفكرية وواقعنا الذي يتكون من تراكم تاريخي فكري اجتماعي لما نحن عليه منذ قرون[٣]، ثم إنّ العلمانية (secularism) بالمفهوم الغربي قد تدرج في نظرياته وهو في تطور مستمر ولا يعرف نهايته باعتبار أن لا مطلق في النظرية العلمانية هذا من جهة ومن جهة أخرى أن هذه العلمانية ليس بالضرورة هي

---

(١) أحمد محمود السيد: **المصطلحات السياسية/ دراسة دلالية مقارنة**. ١٧٢.

(٢) محمد بن عبد العزيز السديس: **العلمانية واثرها في التربية والتعليم في العالم الإسلامي**. ٨.

(٣) الشيخ يوسف القرضاوي: **الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه**. ٤٦.

العلمانية التي تطبق في البلاد الإسلامية، ثم إنّ تطبيقات العلمانية في عقر دارها شابها الكثير من الغموض وعدم الوضوح فعلمانية ستالين الشيوعي غير علمانية هتلر النازي، وعلمانيتهما هي غير علمانية ديغول الاشتراكي الديمقراطي وتشرتشل الليبرالي اليميني، وأيزنهاور الليبرالي الرأسمالي، فكلهم علمانيون ودعاة لها لكنهم في أشدّ أنواع الصراع بينهم، تُرى هل كان الدين أيضاً هو السبب في الصراع هذا؟!!

حتى بَشّر بعضهم بما يسمى بـ(ما بعد العلمانية)، وما يعنيه (ما بعد) أن هذا النموذج قد دخل الأزمة، ولكن لم يحل محله نموذج آخر[1].

أما بالنسبة إلى العلمانيين في بلاد المسلمين فمواقفهم غامضة أيضاً متمحورة بين الإلحاد العلماني وبين العلمانية (المعتدلة)[2]!!، وبين الذين يحاولون أن يتقبلوا الجوانب (الإيجابية!!) للمنظومة العلمانية، دون السقوط في المادية ودون تقويض الحيز الإنساني[3]، حتى ظهر لنا تياران من العلمانيين في البلاد المسلمة، العلمانية المتطرفة والعلمانية المعتدلة، أو ما يُسمّى بـ(العلمانية الشاملة) و(العلمانية الجزئية)[4]. وذهب بعض الدارسين إلى أن

---

(١) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ١٤٤.

(٢) عماد الدين خليل: **قمامة العلمانية**. ١٣٩.

(٣) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ١٤٥.

(٤) فالعلمانية الشاملة تعني "رؤية شاملة للعالم ذات بعدٍ معرفيّ (كليّ ونهائي) تحاول بكل صرامة تحديد علاقة الدين والمطلقات والماورائيات (ميتافيزيقيا) بكل مجالات الحياة وهي رؤية عقلانية مادية، تدور في إطار المرجعية الكامنة الواحدية المادية، التي ترى أن مركز الكون كامنٌ فيه، غير مفارق أو متجاوز له، لأن العالم بأسره مكونٌ أساساً من مادة واحدة، ليست لها أية قداسة ولا تحوي أية أسرار، وفي حالة حركة دائمة لا غاية لها ولا هدف، ولا تكترث بالخصوصيات أو التفرد أو المطلقات أو الثوابت، هذه المادة تشكل كلاً من الإنسان والطبيعة". انظر: عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ١٢٠. أما العلمانية الجزئية فتعني "رؤية جزئية للواقع (إجرائية) لا تتعامل مع أبعاده الكلية والنهائية (المعرفية)، ومن ثم لا تتسم بالشمول، وتذهب هذه الرؤية إلى وجوب فصل الدين عن عالم السياسة وربما الاقتصاد، وربما بعض الجوانب الأخرى من=

الأول ليس ضد الشريعة فحسب بل هو ضد العقيدة أساساً، أما الثاني فهو يستبعد الدين كشريعة وليس عقيدة، وذلك سَمُّوهم بالمعتدلين ولا ندري الفارق الجوهري بين الشريعة والعقيدة الذي اعتمد عليه هؤلاء[1].

ونتيجةً لهذا الغموض والاختلاط في المجال الدلالي لمصطلح العلمانية، وتقليص نطاقه عند بعض الكتّاب، وتكلّسه وعدم تطوير نموذج مركب وشامل لوصف الواقع الغربي (والشرقي) في كليته، نموذج يبيّن ترابط الظواهر وتلاحمها ودلالتها الحقيقية، ظهرت عملية ترشيدية للعلمنة يبشر به واقع ظهور مصطلحات أخرى تساند العلمانية توصيفاً في مجالها الدلالي[2].

=الحياة العامة، وهو ما يُعبَّر عنه أحياناً بعبارة (فصل الدين عن الدولة). ومثل هذه الرؤية الجزئية تلزم الصمت بشأن المجالات الأخرى من الحياة، كما انها لا تنكر بالضرورة وجود مطلقات وكليات أخلاقية وإنسانية وربما دينية..". انظر: عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ١١٩. وعبد الوهاب المسيري: **الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان**. ١٠٥.

(١) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ١٤٦. ونقل هذا الرأي عن الكاتب فهمي هويدي.

(٢) كالتقدم -هزيمة الطبيعة في الجانب الإيجابي، والمجتمع ما بعد الصناعي، ما بعد الأيديولوجيا وغيرها في الجانب الحيادي، وأزمة الإنسان -ثمن التقدم- غياب المركز وغيرها في الجانب السلبي. انظر: عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٣١ وما بعدها. وعلي بن إبراهيم النملة: **إشكالية المصطلح في الفكر العربي/ الاضطراب في النقل المعاصر للمفهومات**. ٨٩. ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في هذا المجال: "إنني أحذِّر دائماً من أن العلمانية ليست مجرد تعريف جامع مانع، وانها ليست ظاهرة محددة واضحة المعالم تتم من خلال آليات واضحة.. وانطلاقاً من هذا التصور الاختزالي تصبح مهمة من يود التصدي للعلمانية هي البحث عن هذه الأفكار العلمانية والممارسات العلمانية "الواضحة" وعن القنوات التي يتم من خلالها نقلها.." انظر: عبد الوهاب المسيري: **العلمانية والحداثة والعولمة**. تحرير: سوزان حرفي. ١١٠.

٦ - سبب يتعلق بتغير المدلول نفسه والدال باقٍ كما هو

فالعلمانية التي راجتْ في البلاد الإسلامية ليستْ بالضرورة هي العلمانية التي نادتْ بها الثورة الفرنسية، وقد يكون الفرق الشاسع ماثلاً للعيان حين تحدث المقارنة. فرغم العلمانية التي تدّعيها أغلب الدول الإسلامية فإنها تنصّ في دساتيرها أنّ الشريعة الإسلامية مصدر أو مصدر رئيسي للتشريع، مخالفة بذلك أحد أهمّ بنود العلمانية وهي فصل الدين عن شؤون الدولة والدستور والتشريع[1]. فالدالّ (العلمانية) هو واحدٌ في كل الدوال، لكن المدلول بينها تختلف بين دولة وأخرى وحسب جزئيتها وشموليتها.

٧ - سبب يتعلق بالدلالة الحقيقية والدلالة المجازية

فقد يحتجّ العلمانيون على علمانيتهم أنها توفّر التخصّص بين ما هو ديني وما هو دنيوي، وما إطلاق العلمانية إلا في سبيل المجاز لا غير، ولا يستهدف محو الدين عن الحياة.

٨ - سبب يتعلق بصعوبة تحديد المعاني مع التطور السريع والتغيُّر السريع

وهذا ما أثبتَتْه نشوء مصطلحات تحاكي العلمانية في تصوراتها، ونستطيع أنْ نقول إنها تفريخ مصطلحات علمانية تواكب التغييرات الاجتماعية، ومحاولة سدّ ثغرات العلمانية بما تأتيه هذه المصطلحات من أفكار أكثر دقة وأوفر وصفاً للواقع العلماني، فالديمقراطية والليبرالية والمجتمع المدني والحقوق المدنية وغيرها، «حتى ظهر عدد لا حصر له من المصطلحات يشير كل منها إلى جانب من جوانب الحداثة العلمانية، فيشير بعضها إلى الثمرات الإيجابية!! لعملية التحديث أو العلمنة كالتقدم وهزيمة الطبيعة، ويلتزم بعضها الآخر بالحياد كالمجتمع التكنولوجي والمجتمع ما بعد الصناعي وما بعد الأيديولوجيا.. ولكن في الوقت نفسه، ظهرت مصطلحات عديدة تشير إلى بعض نتائج عمليات التحديث السلبية كأزمة الإنسان في العصر الحديث وثمن التقدم وهيمنة النماذج المادية والكمية والآلية والاغتراب وأزمة المعنى وضمور الحس الخلقي وهيمنة القيم النفعية وغياب المركز واللامعيارية وتآكل الأسرة والتفكك الإنساني والاحساس بالعبث والتنميط وتراجع

(١) برنارد لويس: **لغة السياسة في الإسلام**. ١٣.

الفردية والخصوصية والتسلُّع والتشيّؤ»[1] وغيرها، وهذا كله ناشيء عن التغييرات الهائلة الآلية السريعة في نظم الأفكار العلمانية التي لا تلبث تكشف المزيد من الثغرات الفكرية العميقة في (العلمانية secularism).

٩ - سبب يتعلق بالمادة الاشتقاقية وصلته بالمشتق منه

فالبناء الاشتقاقي لـ(العلمانية) تدل على مذهب معين حسب وزنه الذي يدل على الوزن الصناعي بإضافة (ية) إلى آخر الكلمة المختلف حوله هل هو (العِلم) [بكسر العين]، أم (العَلم) [بفتح العين] بمعنى (العالم)، والأقرب إلى معنى (secularism) هو [بفتح العين] (العالم) مقابل الآخرة. فصورته القياسية هي المصدر (العالمية) أو (العالمانية). لكن صورته غير القياسية (العَلمانية) هي التي قُدّرَ لها الشيوع والانتشار[2].

---

(١) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٣٢.

ويقول الدكتور المسيري حول هذه المسالة أيضاً: "وقد لوحظ في العالم الثالث، وجود مصطلحات مثل (الديمقراطية) و(العقلانية) و(التنوير) و(والتحديث) و(التغريب) تقف جنباً إلى جنب مع مصطلح (العلمانية) ولكنها تتداخل معه في بعض الأحيان، وبل ويفترض بعضهم قدراً من الارتباط العضوي وأحياناً الترادف بينها، وهذا الخلط له أساسه.. ولكن عملية الربط والتداخل تؤدي إلى اختلاط المجال الدلالي لمصطلح (العلمانية) وتربطه بمنظومات قيمية ونماذج معرفية ليست بالضرورة كامنة فيه، وإنما تضاف إليه". انظر: عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٤٩ وما بعدها.

وهنا يقترح المسيري ما يلي: "وبعد أن اتضح لي أن مصطلح (علماني) خلافي لأقصى درجة، حاولت أن أقوم بتطوير نموذج تحليلي من خلال ما أطلق عليه (التعريف من خلال دراسة مجموعة من المصطلحات المتقاربة ذات الحقل الدلالي المشترك أو المتداخل..)" وهذه الآلية التي اقترحها المسيري تبدو متوافقة مع مثل مصطلح العلماني الذي يشوبه ذلك الكم من الغموض والتبدل السريع في المفاهيم !!.

انظر: عبد الوهاب المسيري: **العلمانية والحداثة والعولمة**. ١٠٧.

(٢) محمد عمارة: **إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات**. دار السلام، مصر - القاهرة، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م. ٥٦٢. وانظر: **سفر الحوالي: العلمانية**. ٢١.

ورغم ذلك فإنّ معنى (secularism) لا يتطابق مع لفظ (العَلمانيـــة)؛ لأن المعـــنى الحقيقي له هو (اللاديني)؛ لأن هذه اللفظة يصعب تحديد معناها في اللغة العربية (باعتبارها لغة الإسلام)؛ لأن هذا المعنى غير متوفر في معجم (النظرية الإسلامية!!)[1] أي فصل الدين عن النشاطات والفعاليات الحياتية في المجتمع.

١٠ - سبب يتعلق بالمشابهة والمجاورة والتقارب الدلالي والتحيّز

فالتحيزات في الدعوة إلى العلمانية اتخذت أشكالاً من التلبيسات؛ لاحتواء الفكـــر الإسلامي ليكون أكثر قبولاً، وتخفيفاً من حدة فعل المصطلح، لتخفيف ردة الفعل تجاهه. فيُتخذ من المشابهة -أو ما يُعتقد أنها مشابهة- بين المفاهيم الـــسائدة في المجتمـــع المـــسلم والعلمانية طريقاً لتثبيت أركان المفهوم العلماني في المجتمع المسلم، فمثلاً اتخاذ حادثة تأبير النخل حجة للتفريق بين ما هو ديني وما هو دنيوي[2].

١١ - سبب يتعلق باختلاف النظم المرجعية في تحديد دلالة مصطلح العلمانية

فالمرجعية التي اتخاذها مسار مصطلح العلمانية حين انتقاله إلى العربية كانت صرفية، رغم أنّ الجهة المسؤولة عن تحديد دلالة مصطلح ما، هو علمٌ خاصٌّ يعرف بعلم المصطلح الذي يدرس المصطلحات ضمن المفاهيم التي تشير إليها وليس فقط ضمن دلالة لفظٍ ما، حيث يكون أقرب إلى المعجمية وليس المصطلحية.

١٢ - سبب يتعلق بأعراض التطور الدلالي لمصطلح العلمانية من تخصيص وتعميم وانحطاط

فالعلمانية في أول ظهورها في ساحة الفكر في البلاد الإسلامية جاءت عامة وشاملة مستغلة بعض الجوانب السلبية لأفكار المسلمين، فجاءت مغطاة بادعاءات العلمية والتطور ضد التخلف والجمود، لكن المصطلح تطور حاله حال المصطلحات عامة حـــين يكثـــر

---

(١) برنارد لويس: **لغة السياسة في الإسلام**. ١١ وما بعدها مع الهامش.

(٢) حيث ورد في حديث عن أنس (أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون. فقال "لو لم تفعلوا لصلح" قـــال فخرج شيصاً فمر بهم فقال "ما لنخلكم؟" قالوا: قلت كذا وكذا. قال: "أنـــتم أعلـــم بـــأمر دنياكم". رواه مسلم، رقم ٢٣٦٣.

تداولها فنشأت منه مصطلحات متفرعة من منظومته الفكرية كالليبرالية والمجتمع المدني والحرية الديمقراطية وغيرها. بحيث نشأت مصطلحات علمانية متخصصة في كل مجالات الحياة كالاجتماع والاقتصاد والسياسة وغيرها[1].

١٣ - سبب يتعلق بقضية اللفظ والمعنى

وهذا يبدو جلياً حين لا يتطابق اللفظ العلماني مع ما رُوِّج على انه العلمية ضد الجهل، فمعنى العلمانية (secularism) لا يتطابق مع معاني العلم وضروریاته في الحياة (science).

١٤ - سبب يتعلق بقانون تبادل التأثير والتأثُّر بين اللغات

إنّ العلمانية بلفظ (secularism) ورد فيه الكثير من الخلط حيث ترجم إلى كلمة (العلمانية) كما أوردنا سابقاً، لكن اللفظ الفرنسي (laique) نقلت معربة دون ترجمته لفظاً فقيل العلمانية أي اللائكية والعلمانيون أي اللائكيون (وهي العلمانية باللغة الفرنسية)، وهذا كان المشهور في بلاد المستعمر الفرنسية في المغرب العربي. لكن الأمرين سواء في نقض قانون التأثير والتأثّر، باعتبارهما لم ينجحا في النقل لا صرفاً ولا تهجّياً.

ب- الأسباب الفكرية في إشكالية المصطلح (العلمانية)

١ - سبب يتعلق بالتفكير وطريقته إلى الوصول إلى الحق ومصادره

فالعلمانية تتخذ من العقل محوراً متزّهاً للوصول إلى الحق، ولا يرى العلماني أمامه من الحق سوى ما أدركه إحساسه فقط، بحيث يفقد الدعم الرباني اللازم لربط الواقع بالمعلومات من قياسها إلى قواعد ينقصها التدخل الإلهي التشريعي لتمكين الإنسان لعمارة الأرض بما أراده الله سبحانه، وهذه سمة العقلية العلمانية عموماً وطريقته في التفكير، مما يخلق فيه نمط من النفسية التي تعني كيفية إشباع الغرائز من خلال ربط دوافع الإشباع

---

(١) يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: "وتصوّرُ أنّ العلمانية فكرة ثابتة أو مخطط ثابت، هي فكرة -في تصوري- ساذجة إلى أقصى حدّ. فالعلمانية في الواقع متتالية مركبة غير محددة المعالم، مجهول الحلقات، ليس لها وجود خارج واقع اجتماعي حضاري محدد، له خصوصيته..".
انظر: عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٢٤.

بمفاهيم يحمله مكونة مع العقلية السابقة الذكر الشخصية التي تفتقر إلى سمة الإنسانية والربانية معاً[1]. وكل هذا ناتج عن طريقة في التفكير تسمى بـ(التفكير السطحي) الذي يغيب عن عناصر كثيرة الإنسان بحاجة إليها ليكمل به رؤيته المعرفية. وهذا النوع من التفكير هو آفة الشعوب والأمم، فإنه لا يمكِّنها من النهضة مع العيش الرغيد، وإنْ كان قد يمكِّن بعضها من العيش الهنيء فقط.

وسبب التفكير السطحي هو ضعف الإحساس أو ضعف المعلومات، أو ضعف خاصية الربط الموجودة في دماغ الإنسان[2] .

٢ - سبب يتعلق بفهم طبيعة الصراع الفكري وأوضاعه

فبسبب الصراع الفكري المحتم بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، وما يصحبه من صراع المصطلحات لكلا المنظومتين الفكريتين، كانت العلمانية أحد أبرز المسائل الفكرية التي نشأت حولها صراع وجدال قلّ نظيره في موضوعات فكرية أخرى، باعتبار أن العلمانية اتخذت لنفسها مسلكاً في كل العلوم والفنون، فنتج عنه اقتصاد علماني ضد الاقتصاد الإسلامي، وفن علماني ضد فنون إسلامية، وأدب علماني ضد أدب إسلامي وهكذا، كان الصراع على أشده بين المنظومتين الإسلامية والعلمانية. وهذا أمر طبيعي باعتبار أن العلمانية اعتمدت منذ نشوئها على الصراع المتنامي ونبذت التنوع والتكامل فكان طبيعياً أن ينشأ

---

(١) سميح عاطف الزين: **لمن الحكم: لله أم للإنسان للشرع أم للعقل**. ١٧٠.

(٢) المصدر نفسه. ٦٦.

فالعلمانية سطحية التفكير لا تعالج إلا بالتفكير العميق أي التعمق في الإحساس بالواقع والتعمق في المعلومات التي تربط بهذا الإحساس لإدراك الواقع، ولا ريب أن القرآن الكريم هو منشأ لمثل هذا التفكير بل الفكر المستنير لمعرفة الحق من الباطل. وبذلك فالاستنارة في التفكير لا تقتضي وجود التعليم، أي أن المفكرين المستنيرين لا ضرورة لأن يكونوا متعلمين، فالأعرابي الذي قال: البعرة تدلُّ على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الواحد القدير هو مفكر مستنير..

انظر: المصدر السابق نفسه. ٧٣.

الصراع بين العلمانية الصراع بين العلمانية المتصارعة مع كل شيء في كل شيء[1]، والإسلام الذي تبرز فيه إحدى أهم سماته وهو التنوع والتكامل.

٣ - سبب يتعلق بالتحيّز الفكري

فالتحيّزات موجودة لدى الإنسان، لكن يبقى تحيزه أيكون للحق أم للباطل، للمشهود به أم في قراءة الوحي وفي قراءة الكون والخلق، أم مخالف للمقروء في الوحي وفي الخلق؟؟!! لكن التحيز للعلماني مخالفٌ للفطرة وأسّ علة الوجود، فالوجود مخلوقٌ طبقاً لإرادة الخالق، والتحيز لغير إرادته محض كفر للنعمة من غير إحصاء، ولكن يبقى أن نشير إلى تحيز غير واعٍ، يستقبله الإنسان المسلم دون أن يعي أنه دخل دائرة العلمنة. وهذه المسألة كامنة في الإنسان. «ولعل أهم آليات هذه العلمنة البنيوية الكامنة الشاملة الكاسحة هو قطاع اللذة ككل، وخصوصاً الأفلام الأمريكية والبرامج التلفزيونية التي تصل إلى السواد الأعظم من البشر، وتقوم بإعادة صياغة رؤيتهم لأنفسهم (عادة في إطار دارويني أو فرويدي أو برجماتي) بشكل بنيوي كامن غير واعٍ، ولكنه شامل»[2].

---

(١) يقول الدكتور عماد الدين خليل: "لقد فتح ذلك الإنسان -أي العلماني -وعيه على حقيقة محزنة وهي أن ليس ثمة مصير موحد يتحقق به وينتمي إليه، ومن ثم غدت حياته مزقاً مبعثرة لا يجمعها رباط، ولا يشدها مصير.. يدخل المحراب ليسجد لله ويلعن الطبيعة ويخرج إلى المصنع لينحني للآلة ويكفر بالله.. يركض وراء (العقل) ليخطط له منهاجاً في الحياة الجماعية، ويسعى إلى الدين ليهبه الطريق في حياته الفردية.. دنياه تتجه إلى الشمال وأخراه تتجه إلى اليمين، فإن أراد الدنيا، ابتعد عن الآخرة، ضاع منه مصيره الخالد.. وإن أراد الدنيا ابتعد عن الآخرة، ضاع منه مصيره الخالد.. وإن أراد الآخرة ابتعد عن الدنيا، ضاع منه مصيره الحيوي الواقعي القريب.."انظر: عماد الدين خليل: **ثقافة العلمانية**، ٨٣.

(٢) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**، ٢٢.

يقول المسيري بشأن التحيزات في النموذج المعرفي والحضاري الغربي الحديث، انها مجموعة في عدة تحيزات عامة، حاول حصرها في:

أ- التحيز للطبيعي/المادي على حساب الإنساني. =

فـ«عمليات إعادة صياغة وجدان وأحلام ورغبات الناس (حياتهم الخاصة)، وتعلمنهم بشكل شامل كامل دون أم يشعروا بذلك، وصفناها بأنها علمنة (بنيوية كامنة)؛ لأن سمات المنتج الحضاري أو الأفكار أو التحولات التي تولد العلمانية بشكل كامن هي جزء لا يتجزأ من بنية هذا المنتج وهذه الأفكار وهذه التحولات، لا تضاف إليه، ولا يمكن استخدام هذا المنتج أو تبني هذه الأفكار أو خوض هذه التحولات دون أن يجد الإنسان نفسه متوجهاً توجُّهاً علمانياً شاملاً. والصفات البنيوية عادة ما تكون كامنة، غير ظاهرة أو واضحة، وهي من الكمون والتخفي لدرجة أن معظم من يتداولون نوعاً بعينه من المنتجات الحضارية، ويستنبطون الأفكار (البريئة)، ويعيشون في ظلال التحولات الانقلابية التي تؤدي إلى توليد الرؤية العلمانية، غير مدركين أثرها، ولهذا سميناها (علمنة بنيوية كامنة) بل إن كثيراً ممن يساهمون في صنع هذه المنتجات وصياغة هذه الأفكار وإحداث هذه الانقلابات قد يفعلون ذلك وهم غير مدركين تضميناتها الفلسفية ودورها القوي في صياغة الإدراك والسلوك. ولذا يمكن أن يكون هناك مجتمع يتبنى بشكل واضح ظاهر أيديولوجية دينية، ولكن عمليات العلمنة البنيوية الكامنة قد تكون من القوة بحيث إنها توجِّه المجتمع وجهة مغايرة تماماً لا يشعر بها أعضاء المجتمع أنفسهم»[1] وبالتالي فإن ما يتشكل على أرض الواقع ليس فصل الدين عن الدولة، وإنما هو أمر أكثر شمولاً من ذلك. فآليات العلمنة لم تعد الدولة وحسب وإنما آليات أخرى كثيرة لم يضعها من سكّوا تعريف

=ب- التحيز للعام على حساب الخاص.

ت- التحيز للمحسوس والمحدود وما يقاس والكمي على حساب اللامحدود وما لا يقاس والكيفي.

ث- التحيز للبسيط والواحدي والمتجانس على حساب المركب والتعددي وغير المتجانس.

ج- التحيز للموضوعي على حسلب الذاتي.

ح- التحيز ضد الغائية والخصوصيية والانقطاع وغيرها من التحيزات التي تساعد بشكل كبير على تدعيم العلمنة البنيوية الكامنة في كل المجالات!!

انظر: عبد الوهاب المسيري: **حوارات/الثقافة والمنهج**، ٣١٣.

(١) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٢٠ وما بعدها.

العلمانية في الحسبان من أهمها الإعلام والسوق[1]. وهنا فمن لا يلاحظ التحيّز العميق في الفكر العلماني فإن بصيرته تحتاج إلى علاج.

٤ - سبب يتعلق بالرؤية النقدية والموقف النقدي من العلمنة

بما أن العلمانية تحمل في طيّاتها رؤية شاملة للوجود من إنسان وطبيعة وكون، فإنها تخضع في ذات الأمر إلى رؤية نقدية تحكمها، وتنتج منها موقف نقدي تجاه كل الوجود، تلك الرؤية النقدية العلمانية تحاول بشتّى الوسائل إخضاع الوجود إلى معايير مادية طبيعية لا ترى غيرها نموذجاً للقياس عليها كالنماذج الغيبية التي يؤسس لها الوحي في الدين. ويمكن اعتبار (الترشيد) أهم مظهر من مظاهر الرؤية النقدية العلمانية والتي تعني: «إعادة صياغة للمجتمع ككل عن طريق تفكيكه واستبعاد سائر العناصر المركبة التي تستعصي على القياس، العناصر الإنسانية أو الربانية، التي يتركب منها، وإعادة تركيبه على هدي المعايير العقلية والعلمية والواحدية المادية..»[2] بحيث يظهر ظواهر العلمنة البنيوية الكامنة

---

(١) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية والحداثة والعولمة**. تحرير الحوار: سوزان حرفي. ١٠٥.
وكمثال لنموذج "العلمنة البنيوية الكامنة" يقول:
"على سبيل المثال عالم الرياضة. كانت ممارسة الرياضة في الماضي تهدف إلى تهذيب الجسد والنفس وتدريب الناس على التعاون وتسليتهم في الوقت ذاته بحيث يقضون وقت الفراغ بطريقة متحضرة. كما انها على مستوى آخر كانت تدريباً على الصراع الرقيق لتفريغ نزعات البشر العدوانية من خلال قنوات متحضرة. ولكن الرياضة انفصلت تدريجياً عن كل هذه القيم لتصبح مرجعية ذاتها، ومنفصلة عن القيمة وتصبح معايير الرياضة رياضية، ويصبح إحراز النصر هو الهدف الأعلى والسفل والوحيد. ونسمع بعد ذلك عن تفرغ اللاعبين تماماً للرياضة واحترافهم.. وقد اقتحمت أخلاقيات السوق عالم الرياضة فيتم بيع لاعب وشراء لاعب وكأننا في سوق النخاسة، ولذا بدلاً من الانتماء للوطن وللقيم يصبح الانتماء إلى المال المحرك الأول للإنسان الاقتصادي.." انظر: عبد الوهاب المسيري: **العلمانية والحداثة والعولمة**. ١١٦.
(٢) عبد الوهاب المسيري: **الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان**. ١٣٠.
وعبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٩٧. وعبد الوهاب المسيري: **العلمانية والحداثة والعولمة**. ٣٣. =

بأجلى صورها كالتشيؤ والتوثُّن والتسلُّع والإنسان ذو البعد الواحد وغيرها.

فهذه الرؤية التي تشتمل على النظر إلى الإنسان وما يحمله من أفكار ومشاعر وغيرها كشيء أو سلعة، ذلك الذي يفتقد إلى المصداقية مما يولد الإشكالية الحقيقية في مصطلح (العلمانية) ورؤيته النقدية هذه.

٥ - سبب يتعلق بالمنطلقات المعرفية والمنهجية لمصطلح العلمانية

قلنا سابقاً إنّ الفكر الغربي اعتمد في استدلالاته المعرفية على المنهج المادي المحسوس فقط، ولم يدر بالاً بالمصادر الأخرى للمعرفة كالوحي (وهو من أسمى المصادر)، والتاريخ والنفس الإنسانية، والكون والآفاق، ثم المنهج العلمي التجريبي القائم على الاختبار والتجربة، والمعرفة الإنسانية على هذا الأساس- لا تتكامل إلا إذا استطاعت أن تشمل كل الآفاق[1].

أما منهج العلمانية فإنه قاصر قصوراً شديداً؛ لأنه يقف عند المادية. وهي ليست كل ما في الحياة ولن تكون بأي حال أساساً للمجتمع البشري؛ لأن في المجتمع عشرات القوى غير المادية. وهذا القصور يتبدى ويظهر جلياً في مصطلح العلمانية باعتباره هو مفتاح

=وهذا الترشيد يسمى الترشيد المجرد من القيمة والذي يتم من خلال خطوتين في إطار ما يسمى الترشيد الشكلي أو الإجرائي المتحرر من القيم، والموجّه نحو أي هدف يحدده الإنسان بالطريقة التي تروق له أو حسبما تمليه رغباته أو مصلحته، وهذا يتم من خطوتين كما قلنا وهي:

١ - سحب الأشياء من عالم الإنسان ووضعها في عالم مستقل يسمّى عالم الأشياء المادية: الاقتصادية - السياسية -السلع، ترشيد البنية المادية والاجتماعية.

٢ - ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد إذ يتم سحب الإنسان ذاته من عالم الأشياء ووضعه هو الآخر في عالم الأشياء. ثم يسود منطق الأشياء على كل من الأشياء والإنسان ويظهر بالتالي ظواهر العلمنة البنيوية الكامنة كالتشيؤ والتسلُّع والإنسان ذو البعد الواحد !!! مبتعدة بالكامل عن النموذج الأصلي لمعنى الترشيد والذي يسمى الترشيد المضموني أو التقليدي ويعني ألا يتعامل المرء مع الواقع بشكل ارتجالي وجزئي وإنما يتعامل معه بشكل منهجي متكامل، ومتسق مع مجموعة القيم الأخلاقية المطلقة والتصورات المرجعية المسبقة التي يؤمن بها.

(١) أنور الجندي: **سقوط العلمانية**. ٧٠.

الدعيّ العلماني في عالم الأفكار فتنشأ الإشكالية حين يراد تعميم أحكامه ونعته لما ليس فيه سمات العلمانية، أو إقحامها في أشكال معرفية لا تستطيع تحمل عناصر تكوينها كالوحي مثلاً.

وعلى هذا الأساس «تقف المبادئ الإسلامية بوجه العلمانية من هذه الزاوية، من ناحية أنها تصور خاطئ لمدارك الإنسان، وتحديد قاصر لعلاقته بالكون والعالم. والمبادئ الإسلامية ترد الأمور إلى نصابها بإيجاد تصور صحيح لمدارك الإنسان، وتحديد واسع لعلاقته بالكون والعالم، تصور وتحديد يقومان على الفطرة التي فطر الناس والأشياء عليها»[1].

فالعلمانية في تضاد مع الإسلام، «الإسلام كنظام يسيطر على المسلم في كل حركاته وسكناته، يسيطر عليه في تفكيره ونيته، وفي قوله وعمله، يسيطر عليه في سره وجهره وفي خلوته وجلوته، يسيطر عليه في قيامه وقعوده وفي نومه ويقظته، يسيطر عليه طعامه وشرابه وفي ملبسه وحليته، يسيطر عليه في بيعه وشرائه وفي تصرفاته ومعاملاته، يسيطر عليه في جده ولهوه وفي فرحه وحزنه وفي رضاه وغضبه، يسيطر عليه في بأسائه ونعمته وفي نعمته وفي مرضه وصحته وفي ضعفه وقوته، يسيطر عليه غنياً وفقيراً صغيراً وكبيراً عظيماً وحقيراً، يسيطر عليه في بنيته وأهله وفي صداقته وعدوانه وفي سلمه وحربه، يسيطر عليه فرداً وفي جماعة وحاكماً ومحكوماً ومالكاً وصعلوكاً وليس ثمة تصرف يتصوره العقل أو حال يكون عليها الإنسان إلا سيطر فيها للإسلام على المسلم ووجهه الوجهة التي رسمها»[2] فأنى يتوافق هذا مع ما تريده العلمانية!!؟؟

---

(١) عماد الدين خليل: **تهافت العلمانية**. ٢٥. يقول الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي: "إن الإسلام في داره (دار الإسلام)، لا يكتفي بأن تكون عقيدته مجرد شيء مسموح به، وليس محظوراً كالمخدرات والسموم البيضاء. إنه يريد أن تكون عقيدته محور التربية والثقافة، والفن والإعلام، والتشريع والتقاليد، في المجتمع كله". انظر: الشيخ يوسف القرضاوي: **الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه**. ٩٥.

(٢) عبد القادر عودة: **الإسلام وأوضاعنا السياسية**. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٩، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م. ٧٥.

٦ - سبب يتعلق بالتفكير اللغوي ومذاهبه

فالإشكال اللغوي واقعٌ في مصطلح العلمانية حين يهمل أو يتناسى طبيعة التفكير اللغوي للأمة، «فسابقاً أشرنا إلى أن موقف الباحث من اللغة يختلف اختلافاً تاماً عن موقف المتكلم؛ لأنّ هدف المتكلم هو صحة الاستعمال، الصحيح يجري حسب معايير، ولكنّ المنهج الصالح لا بدّ أن يعترف بطبيعة اللغة، باعتبارها ظاهرة اجتماعية»[١]. لكن هذه الأمور في مصطلح (العلمانية) غير متواجدة، سواء في هدف المتكلم الذي يبغي صحة الاستعمال؛ لأننا أدركنا سابقاً أن لفظة (العلمانية) غير متوافق مع أصله الأجنبي (secularis) لا معنىً ولا مفهوماً، وسواء كان في هدف الباحث، حين جرى التجاوز على المنهج اللغوي في التعامل الصالح مع مصطلح (العلمانية) باعتباره ظاهرة غريبة عن المجتمع الإسلامي و لم يعرفه في أطوار تاريخه وتم كل هذا عن طريق «مصادرة اللغة وهي الوطن الحقيقي للإنسان، فهي هجرةٌ واغترابٌ واستلحاقٌ (بالآخر) وفقدان (الذات)، ذلك أن التعبير بلسان (الآخر) هو تفكير بعقل (الآخر)»[٢].

٧ - سبب يتعلق بفهم الخطاب الموجّه إلينا فهماً دقيقاً

فرغم غموض الخطاب العلماني في بلادنا على الأقل، وتفاوته بين الإلحاد والدعوة إليه، وقبول الدين كإحدى الفعاليات المعترف بها في حياة (المواطنين!!)، فإنّ تحقيق الفعالية والتأثير في أي نشاط يتم من خلال فهم الخطاب الموجّه إلينا ورغم أنّ الخطاب العلماني في أصل نشأته لم يكن موجهاً إلى المسلمين وإنما كان شأناً أفرزه الصراع في المجتمع الأوروبي، لكنّ الأمر اختلف حين تبنته مجموعة من الناس ذوي الأصول الإسلامية، فكان حريّاً بنا فهمهم وفهم ما يريدون، لكن هذا الفهم لم يستكمل عناصره في مصطلح العلمانية مؤدياً إلى الإشكال الفكري في هذا المصطلح وذلك للإعتبارات التالية:

---

(١) تمّام حسّان: **اللغة بين المعيارية والوصفية**. ٢٢.

(٢) سعيد شبار: **المصطلح خيار لغوي.. وسمة حضارية**. ٢٨.

أ- لم يراعِ المصطلح (العلمانية) وحاملوه، ولم يدركوا بنيات المجتمع الإسلامي النفسية والاجتماعية والتاريخية التي تكوّن مناخه الفكري؛ لأنهم أرادوا تحييد المؤثر الرئيسي في هذه البنيات ألا وهو الدين الإسلامي.

ب - امتلأ الخطاب العلماني بالتعقيد والانزلاق في متاهات الاختزال أو التعميم وانعدام البساطة والسهولة في عرض مشروعه الفكري والحضاري[1].

ج- عدم وعي المخاطَب بالعلمانية بالدور الذي يتضمنه ضمن الخطاب العلماني حياةً وبناءً ووعياً كاملاً، ومعرفة تفاصيل ذلك الدور وغاياته ووسائله ومعوِّقاته وتحدياته[2].

وهذا كله بسبب عدم الإحاطة الكاملة بمصطلح العلمانية ودلالاته الفكرية، التي تؤهّلنا للحوار معه؛ ذلك لأنّ خلفيته الفكرية هي التي تشكل ذاكرته وتصوغ شاكلته الثقافية، وتاريخيته التي تبيّن لنا مدى تمكُّن هذه الخلفية من سلوكه واستجاباته، وواقعه الذي يمثل مستقبل تاريخه، وبالتالي كل هذا يبصرنا بمشكلاته وكيفية التعامل معه[3].

---

(١) عبد الوهاب المسيري: **اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود**. ٤٨. وعبد الوهاب المسيري: **حوارات/ الهوية والحركية الإسلامية**. تحرير: سوزان حرفي. دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٣٠هـ /٢٠٠٩م. ٤٠ وما بعدها.

(٢) طه جابر العلواني: **الأزمة الفكرية المعاصرة/تشخيص ومقترحات علاج**. ١٩.

(٣) عمر عبيد حسنة: **الخطاب الغائب**. ٥٤ و١٥٣.

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: "إنّ كثيراً ممن ينقلون عن الغرب لم يدرسوا الغرب [وبالتالي مصطلحاته ومفاهيمه] بما فيه الكفاية، مع كل دعاويهم عن ضرورة الانفتاح !.. كم من المحللين النفسيين في العالم العربي يعرفون علاقة فرويد بالقبالاه اللوريانية (التراث الصوفي الحلولي)؟ وخلفية فرويد الاجتماعية والإثنية في فيينا في القرن التاسع عشر؟ وما القبالاه اللورانية هذه أساساً؟..

فالإختيار الحر يتطلب المعرفة الكاملة، والمعرفة الكاملة تستند إلى إدراك الشيء، في كليته وتركيبته، في سلبياته وإيجابياته، في حاضره وماضيه ومستقبله، في أصوله وبنيته وتطبيقاته الظاهرة والكامنة. واعتقد أن ما ينقل من حضارة الغرب هو أساساً أفكار نُزِعت من سياقها التاريخي والاجتماعي والمعرفي لتقدم إلينا كأنها مطلقات!" انظر: عبد الوهاب المسيري: **الثقافة والمنهج**. ٣١٢.

٨ - سبب يتعلق بالرؤية التجديدية

فرغم أنّ التجديد مصطلح شرعي[١]، فإنّ العلمانيين استغلوها لتمرير الأفكار التي يحاولون فرضها على العقلية المسلمة، بحيث يغيرون من الإسلام ما يريدون ببدائل علمانية بعيدة عن الدين، على أساس فصل الدين عن الحياة وشؤونها. فأرادوا من التجديد التغيير أي تغيير الأحكام والعقائد الإسلامية بما يوائم الوافد من الأفكار، وموائمة للواقع المفروض من المستعمر، والحاكم الجائر الذي لا يحكم بحكم الإسلام. وتقديساً للعقل الذي يرى العلمانيون فيه المطلق الذي ليس ورائه مرجع. وبذلك رأوا في تجديد الدين: تطويره وتعديله بالزيادة عليه والحذف منه وتهذيبه ليتلائم مع المفاهيم السائدة في العصر الحديث[٢]، مقلدين في ذلك حركة الاصلاح الديني في أوروبا[٣]، التي استغلتها العلمانية لتثبيت حدود الكنيسة في الحياة العامة. لكن التجديد الإسلامي اتسم بجماع (اكتمال الدين) وبين (تجديده) «الأمر الذي ربط -في الفكر الإسلامي، والمسيرة الحضارية الإسلامية- بين (السلفية) وبين (التجديد) ؟! فالسلف هو الماضي، والمرجع، والجذور، والمنابع الأولى والجوهرية

---

(١) ويعني فيما يعنيه "إعادة الدين بعد أن تراكمت عليه البدع والمحدثات، وانطمس جوهره بفعل التأويلات والتحريفات، إلى ما كان عليه يوم نزوله، ولا يعني تبديل أحكام الدين والإتيان بدين جديد" انظر: عدنان محمد أمامة: **التجديد في الفكر الإسلامي**. ٥٦٠.

ومنطوق الحديث النبوي الذي ورد فيه مفهوم التجديد: (عن أبي هريرة ﷺ فيما أعلم عن رسول الله "ﷺ" قال: إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) رواه أبو داود والحاكم، وقال الشيخ الألباني: "والسند صحيح، ورجاله ثقات، رجال مسلم" في السلسلة الصحيحة ٢/١٥٠.

(٢) عدنان محمد أمامة: **التجديد في الفكر الإسلامي**. ٣٧٣.

(٣) وهي الحركة التي بدأها مارتن لوثر (١٤٧٣-١٥٤٦) بألمانيا، وقد أحدثت تغييرات جذرية عميقة وشاملة في اللاهوت والتدين النصراني، وأنكرت ممارسات للكنيسة كوساطتها ورجال الدين بين الله والإنسان وغيرها. انظر: أحمد شلبي: **مقارنة الأديان (المسيحية)**. ٢٥٣.

ومحمد عمارة: **إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات**. ١٠٠.

والنقية لديننا ولحضارتنا.. والتجديد هو جلاء الوجه الحقيقي لهذه الأصول، بتنقيتها من البدع والابتداع، وهو أيضاً مدّ الفروع الجديدة -والنابعة من هذه الأصول- لتظل الميادين الجديدة، ولتضبط الواقع الجديد بضوابط هذه الأصول..»[1].

إذن فليس كل من ادعى التجديد هو مجدِّد ويريد التجديد، وما يريده العلمانيون هو إقحام فكرهم في الدين عقيدةً وشريعةً وسلوكاً بحيث يكون أكثر طواعيةً لما يهدفون وترويجاً لمذهبهم، وبذلك يترعون القداسة عن الدين ككل ونصوصه على الخصوص ومرجعيتها[2] تمهيداً للانقضاض على الدين ومحوه[3].

---

(١) محمد عمارة: **إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات**. ١٨٧. وانظر: عمر فروخ: **تجديد في المسلمين لا في الإسلام**. دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠١ه/١٩٨١م. ٩.

(٢) وقد راجتْ في العقود الأخيرة تفسيرات غريبة للدين ونصوصه، وبخاصة نصوص القرآن الكريم من قبل هؤلاء أمثال محمد شحرور ومحمد أركون ونصر حامد أبو زيد وغيرهم محاولين إضفاء صفة الزمنية أو الأسطورية والواقعية وغيرها بأفسد طرق التأويل الفاسد ما يمجه الأذواق وتأباه الفطرة السليمة، وكل هذا لتمرير فكرهم العلماني وللإستزادة راجع: منى محمد بهاءالدين الشافعي: **التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم**. دار اليسر، القاهرة، ط١، رجب ١٤٢٩هـ. وناصر عبد الكريم العقل: **الاتجاهات العقلانية الحديثة**. دار الفضيلة، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م. ٣٥٩. وعدنان محمد أمامة: **التجديد في الفكر الإسلامي**. ٣٥٧. وطه جابر العلواني: **إصلاح الفكر الإسلامي/مدخل إلى نظم خطاب الفكر الإسلامي**. ٥٥.
وقد أثارت كتابات محمد شحرور ذلك المهندس الذي أقحم نفسه في متاهات هو اصطنعها في تفسير القرآن، فجاءنا بمفاهيم مغلوطة وانحرافات خطيرة في دلالة الآيات والمفردات القرآنية، ومن الردود المستفيضة على طروحاته:
عبد الرحمن حبنكة الميداني: **التحريف المعاصر في الدين تسلّل في الأنفاق بعد السقوط في الأعماق**. دار القلم، دمشق- سوريا، ط١، ١٤١٨ه/١٩٩٧م. ومحمد صيّاح المعراوي: **الماركسلامية والقرآن**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٣) أحمد إدريس الطعان: **مآل الإسلام في القراءات العلمانية**. ٤٤.

٩ - سبب يتعلق بالأزمة الفكرية والمنهجية

فالإشكالية الفكرية لمصطلح العلمانية وعبورها إلى البرّ الإسلامي، واقتحامها الأسوار المنيعة، ناتجة عن تلك الأزمة الفكرية التي تمرّ بها الأمة منذ سقوط دولة الخلافة. فالمناهج التي تصدت للعلمانية لم تكن متسلحة بما يمكّنها من التصدي لتغلغل العلماني في أطراف الجسد الإسلامي، أو أنها لم تعِ خطورة الموقف، وبخاصة أنّ الفكر الإسلامي قد أصابه نوعٌ من الفتور والخوار وعدم المبالاة في أحيانٍ كثيرة، رغم أنّ بعض المفكرين كانوا بالمرصاد للمخطط العلماني، لكن الوضع العام للأمة كان مؤهلاً لشرخٍ فكري كبير نتيجة تحولها من فكرة الطاعة للدين، إلى فكرة تطويع الدين لمآرب خاصة[١]. والقصور المنهجي للوفاء بمتطلبات العصر، والذي ادعت العلمانية انها متوفرة لديها بشعاراتها البراقة حول العلم والتقدم والتطور والعدالة والحرية. رغم أنّ أعتى النُظُم ظلماً وفساداً كانت متخرجة من مدرسة العلمانية والاغتراب الذي دعا إليه هؤلاء.

فاختلطتْ على الفكر المسلم عند ذاك المنهجية الصحيحة وحملته العلمانية فأصابه داء الخلط بين ما هو فكر إنساني والعقيدة الربانية، وبين ما هو غاية الحياة وبين ما هو وسيلة إجرائية فقط، وبين ما هو ديني يصلح لكل زمان ومكان وبين ما هو تاريخي في بيئة معينة، وبين القيم من حيث إنها غاية تراد وبين ما هو حدث قد لايتكرر مرةً أخرى ليبنى عليه الرؤى، وبين ما هو مفهوم مؤسّس وبين ما هو تقليد وغير مؤسس، فكانت حقيقةً كل هذا تشكل أزمة يصعب معها الفهم الصحيح لطبيعة مفهوم العلمانية[٢]. وبذلك عجز الفكر المسلم في كثير من الأحيان أن يتحول من موقف الدفاع إلى موقف الاستيعاب ثم النقد ثم الإبداع لتكييف الواقع وفق نظريته ومنهجه[٣].

---

(١) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية والحداثة والعولمة**. ١٣٧. وسفر الحوالي: **العلمانية**. ٥٠٩.

(٢) عبد الحميد أبو سليمان: **أزمة العقل المسلم**. ٥١. وعبد الله النفيسي: **ليس من مصلحة الإسلام قيام دولة للحركة الإسلامية**. حاوره: علي العميم في حوارات (العلمانية والممانعة الإسلامية). دار الساقي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م. ٣٣.

(٣) محمد عبد الله زرمان: **الخطاب الإسلامي المعاصر وإشكالية المنظومة المصطلحية**. ٧٨.

١٠ - سبب يتعلق بالازدواجية الفكرية والتبعية الثقافية والفكرية

فالأصالة أصبحت حنيناً للماضي والأجداد، والمعاصرة أصبحت إعجاباً ببريق الشعارات الغربية فحصل التصادم بين ما هو أصيل فينا وبين ما هو غريب عنا، وهذا هو سمة العلمنة، فهي تُنشئ الصراع بين الثنائيات، بين الماضي والحاضر، عكس الفكر الإسلامي الذي ينشد التكامل بين الماضي والحاضر، مستفيداً من تجارب الماضي وقيمه، منطلقاً منها مفعِّلاً عقله ليوائم العصر الذي يعيشه. ورغم ذلك فإنّ الازدواجية الفكرية هي نتيجة حتمية عندما تتعرض النظرية إلى إزدواجية في التطبيق، وإزدواجية الفكر والتنفيذ، والقول والعمل[١]. فما رسمته العلمانية من أحلامٍ وشعاراتٍ برّاقة لنظرياتها في الحياة عامة وفي السياسة والاقتصاد بخاصة، خيّم عليها الظلام الدامس حين آل الأمر في أغلب البلاد الإسلامية إلى أناسٍ علمانيين فعاثوا في البلاد فساداً، فسادٌ في الحكم حين حكموا بغير ما أنزل الله، وفسادٌ في الإدارة حين ظلموا الناس واسترهبوهم، وفسادٌ أخلاقي حين راجتْ في دولتهم الزنا والفواحش التي أهلكت الحرث والنسل، وفسادٌ في الصحة وفسادٌ في التعليم وغيرها كثير، ألم يحكموا باسم العلمانية التي تدعي العدل والحرية والتقدم والتطور فعانتْ بلادهم لعقود من الظلم والاستبداد والتخلف والتراجع؟؟!![٢].

١١ - سبب يتعلق بالأصالة والمعاصرة

أشرنا سابقاً أنّ كل ما مضى غير مندرج في التحليل العلماني للأحداث، فهي -أي العلمانية- تدعي محاربة الرجعية والماضوية، والتعلق بمباديء مضى عليها الزمان!!

لكن إنْ كان حجة العلمانية هي رفض المبادئ التي وضعت في ماضي العصور والأزمان وعدم مناسبتها للعصر الحاضر، فإننا يمكن القول «بأنّ العلمانية اليوم حركة

---

(١) عماد الدين خليل: **تهافت العلمانية**. ١٢٢. وانظر: رفيق عبد السلام: **في العلمانية والدين والديمقراطية/ المفاهيم والسياقات**. مركز الجزيرة للدراسات والدار العربية للعلوم ناشرون، الدوحة- قطر، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م. ٩٧.

(٢) الشيخ يوسف القرضاوي: **الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا**. مكتبة وهبة، القاهرة، د.ط، د.س. ١٩٠وما بعدها.

رجعية [أيضاً]، رجعية من حيث تاريخها، فقد زالت الظروف التاريخية التي كانت تتطلبها، رجعية من حيث الدولة، حين تهمل واجباً من أهم واجباتها. وإنّ من الضروريات الحتمية اليوم.. قيام دولة مدنية متدينة تعنى بحياة الإنسان مادياً وروحياً عناية غير مجزأة ولا منشطرة، فوحدة حياة الإنسان مادياً وروحياً، هو ما يجب أنْ تعنى به الدولة..»[1] أي أنّ الأصالة التي اتسم بها الدين لا مناص من الأخذ بها، فوجود الدين سنة من السنن الإلهية التي لا تقبل العدم في الوجود[2] «ونحن نرى اليوم كثيراً من الكتّاب في الغرب يعيدون عرض مفاهيم الدين وتفسيراته، ويحاولون إيجاد صياغة جديدة تناسب العصر»[3] هذا بالنسبة لدينهم النصراني، ورغم ذلك فإنهم كثيراً ما يتجاوزون حدود هذا الدين البالي متوجهين شطر الإسلام، وما أكثر من أسلم من هؤلاء وحسن إسلامهم.

ورغم ذلك فإنّ العلمانيين كثيراً ما رأوا في الإسلام خصماً يجب تجريده من أصالته حتى يتسنّى الانقضاض على فكره ومنهجه، فاخترقوا المجال المفهومي لمصطلحات إسلامية فأفرغوا مضامينها من المنهجية الإسلامية، فاستخدموا الدال الإسلامي بدون مدلوله، كاستخدام مصطلح (الاجتهاد) لتمرير مفاهيم علمانية باسم الاجتهاد لتوافق المنهج الفكري للعلمنة القائم على فصل الدين عن الحياة والرغبات والمآلات. وبالتالي إبعاد المنهج الإسلامي من مواكبة المستجدات فيما يعرف بـ(المعاصرة)[4].

---

(١) أنور الجندي: **سقوط العلمانية**. ١٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ١٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ١٤١.

(٤) وهنا كان لزاماً للفكر الإسلامي عرض الفارق بين التحديث والتغريب، فقد خلطت بعض النخب الفكرية بينهما (وظنت أن المسألتين واحدة وهما مختلفتان. التغريب هو فكرة أيديولوجية تحاول إلباس هذا على ذاك وتركيب شيء على شيء وتفصّل قياساً مختلفاً على قياس آخر، بينما التحديث مسألة تطورية لها علاقة بالحاجة الإنسانية الموضعية وتزايد متطلبات الإنسان وليس لها صلة زمنية بمفاهيم الشرق والغرب واوروبا والعرب) فالتفريق هذا معلم من معالم المعاصَرة وشروطها النهضوي. انظر: وليد نويهض: **النخبة ضد الأهل**. دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ٢٠٥ وعمر عبد الله كامل: **العواصم من قواصم العلمانية**. مكتبة دار التراث الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م. ١١٦.

١٢ - سبب يتعلق بالتغريب والتضليل الفكري والغزو الفكري

إنّ التغريب كحقيقة تاريخية لا يمكن إنكاره، والتضليل الذي أصاب فكر بعضٍ من المسلمين ثم يكن بالبساطة التي كنا نتصورها قبلاً، فالبحوث والدراسات السابقة لمسألة التغريب، وبخاصة التغريب بواسطة علمنة الإنسان، كانت تؤكد على هذه المسألة خارج كيان الإنسان، لكن الذي يجب أنْ ندركه أنّ التغريب بواسطة العلمنة نحى منحىً خطيراً، حين نعتقد أنّ العلمانية وأساليبها تبقى ثابتة وغير متحولة، لكننا يجب أنْ لا نتجاهل بعض الحقائق البدهية والبسيطة «مثل أن النماذج الطبيعة/ المادية موجودة بشكل كامن في أي مجتمع البشري، ومكوّن ضروري وأساسي في الوجود الإنساني، وأنّ أية جماعة إنسانية، مهما بلغ تدينها وتمسّكها بأهداب دينها -وضمن ذلك الأمة الإسلامية- لا بد أنْ تتعامل في كثير من الأحيان مع الزمان والمكان والطبيعة والجسد من خلال إجراءات زمنية مادية صارمة دون أي تجاوز للسقف المادي.

إنّ عناصر العلمنة موجودة في أي مجتمع، في الهامش وفي حالة كمون، ويمكن أن تنتقل من الهامش إلى المركز (المرجعيةالنهائية) ومن الكمون إلى التحقق، إنْ ظهرت اللحظة التاريخية والظروف الاجتماعية والسياسية المواتية وساد الجو الفكري المناسب.

إنّ السلوك الإنساني يتسم بالتركيب، وما يحدده ليس العوامل الواضحة والبرامج المحددة وحسب. فدور العناصر الكامنة غير الواضحة التي لا يعيها الإنسان تؤدي دوراً قوياً في تشكيل السلوك الإنساني، بل إنها في معظم الأحيان تكون أقوى في التأثير من العناصر الواضحة التي يستطيع الإنسان أنْ يمارس إرادته ضدها، فيتحاشاها أو يحاصرها أو يحيدها»[1].

---

(١) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية والحداثة والعولمة**. ١١١. هنا يبقى التعامل مع هذه الظاهرة البنيوية الكامنة، فمنهم من يرى انها معالجة إجرائية لإدارة الشأن السياسي ولتنظيم العلاقات العامة بعيداً عن الصراعات الدينية والتحيزات الطائفية، ولكنها عند بعضهم الآخر ما تكون بالعقيدة الصلبة والمرونة النظرية الكبرى التي لا تختلف كثيراً عن الأديان والعقائد الكبرى، فكان حريّاً أنْ تسمى بـ(الدين العلماني). ولكن الرؤية الإسلامية لا تنفي مثل هذه الظاهرة كونها مثل=

حتى أصبح استبطان العلمانية يصعب في الظروف الفكرية الراهنة تجاوزها بسهولة فهي (علمنة بنيوية كامنة). وهنا نتصور كمية التضليل والغزو الذي نعاني منه.

١٣ - سبب يتعلق بالوعي المصطلحي وخصوصية الخطاب الإسلامي[١]

إنّ وعينا بمصطلح (العلمانية) وغيره من المصطلحات الوافدة والأصيلة أيضاً فينا، تقودنا إلى التعامل الصحيح مع مفهوم المصطلح، لكننا رأينا كمية التضليل الذي تمارسه العلمنة في أخذ الألباب والسيطرة على الرغبات، وكسر الخصوصيات، لذلك فهي لا تعترف بخصوصية معينة حتى خصوصية الخطاب، فهي المركز ويجب صدور الخطاب المعاصر منها فقط، وتحارب أية منظومة تصدر خطاباً خاصاً بها دون ربطها بالعلمنة والنسبية المادية التي تروّج لها، فالعلمانية تفرض نفسها بفكر القوة وإرهاب الفكر على المجتمع، بأساليب قريبة الشبه بالكمائن والألغام العسكرية، لكنها كمائن فكرية وألغام تضليلية تحاول بشتى الطرق صرف المسلم عن خصوصيته الفكرية والحضارية، واستغلال تعامله مع الواقع في الزمان

=مثيلاتها في النفس الإنسانية بما أنّ النفس الإنسانية أمارة بالسوء!! انظر: عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٢٤٤. ورفيق عبد السلام: **في العلمانية والدين والديمقراطية**. ٩٩.
بينما كنت مشغولاً بكتابة هذه السطور، استوقفني حديث للرسول ﷺ رأيت فيه التوصيف المناسب لظاهرة (العلمنة البنيوية الكامنة) حيث يقول ﷺ: "إنّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم" متفق عليه. وبذلك نستطيع أنْ نقول إنّ كل كمون في الإنسان يؤيده الوحي (القرآن والسنة) فهو من الفطرة التي فطر الناس عليها. وبالمقابل فأي كمون يعارض ويتعارض مع الوحي فهو من الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم!!

(١) عرّفت الخصوصية بشكل عام على أنها (التمايز عن الآخر والاتصاف بملامح ذاتية تختلف عنه. وعلى المستوى القيمي، فإنّه يعني الوعي بالذات وحقيقتها الوجودية وإدراك تميزها وحدودها الزمانية والمكانية ورسالتها الإخلاقية وما يرتبط بها من دلالات سياسية واقتصادية واجتماعية). انظر: بشير عبد الفتاح: **الخصوصية الثقافية**. دار نهضة مصر،القاهرة، ط١، يوليو٢٠٠٧. ٧. وعبد الوهاب المسيري: **حوارات/الهوية والحركية الإسلامية**. تحرير: سوزان حرفي. دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م. ١٤١. وعقيل حسين عقيل: **تقويض القيم (من التكميم إلى تفجُّر الثورات)**. ٩ وما بعدها.

والمكان والطبيعة والجسد ضرورة لتبني العلمنة البنيوية الكامنة، هذا إذا لم يعترف بها مؤسسياً في دولة تفرض منهجاً أبعد ما يكون عن طبيعة البلد والشعب والأمة ومعتقداتها وطبائع فكرها وتسلسل أولوياتها في الحياة عامة[1]. وهو بعكس الخصوصية الإسلامية المتميزة عن ثقافات الغرب والشرق، التي نستطيع أنْ نستوعب أبرز خطوطها في نقاط رئيسية هي: التوحيد، التكامل، الأخلاقية، التوازن بين الروحي والمادي، الترابط بين الماضي والحاضر، النظرة العقلية المؤمنة، الجمع بين الدنيا والدين، الحرية المنضبطة، القدرة على التطور، القدرة على التصحيح، الطابع الإنساني، مفهوم التقدم، الوسطية[2].

---

(١) بشير عبد الفتاح: **الخصوصية الثقافية**. ٥٨. وعبد الوهاب المسيري: **العلمانية والحداثة والعولمة**. ١١١ومابعدها.

(٢) أنور الجندي: **مَعْلَمَة الإسلام**. المجموعة الأولى. ٥٣٤.

ومن هنا لا بدّ أنْ نشير أننا لا نقصد بالخصوصية الانغلاق وعدم الانفتاح على الآخر، بحيث يتهم الفكر الإسلامي أنه منطوي على مجموعة من النصوص لا يتعدها، وهو يرفض الاستفادة من غيره، لكن الأمر لا يستوي إلا بذكر هذه النقاط:

(أ- أنْ دعاة الإسلام لا ينكرون استيراد الأفكار الجزئية، أو الحلول الجزئية، أو الحلول الجزئية لمشكلاتنا من الغرب أو الشرق، إذا كانت ملائمة لنا، محققة لأهدافنا، نختارها نحن ولا تختار لنا أو تفرض علينا..، إنما ينكرون استيراد مذهب كامل نتخذه مرجعاً لنا، أو فكر كلي أو حل كلي، نؤسس عليه حياتنا كالفكر الليبرالي الرأسمالي، أو الفكر الاشتراكي الثوري الماركسي وغيرهما.

ب- أنّ دعاة الإسلام ينكرون أنْ نظل نحن نستورد أبداً ولانصدّر، ونشتري ولا نبيع، ونأخذ ولا نعطي..فهذه ليس من "التبادل" في شيء. إنما نحن -حينئذٍ- سوق السلع الآخرين، وأفواه مفتوحة لالتهام منتجاتهم، وهذه هي "التبعية" الذليلة المرفوضة، التي لا يجوز أنْ ترضى بها أمة كريمة، لا في عالم الأشياء ولا في عالم الأفكار.

ت- أنّ علم الاقتصاد الذي يستند إليه هؤلاء العلمانيون، والذي يرى أنّ الحياة قائمة على التبادل، وأنّ الاستيراد كثيراً ما يكون ضرورياً للأمم والجماعات، هذا العلم نفسه يقيد هذا بقيود تجعله وسيلة نفعٍ لا أداة ضرر، وآلة بناء لا معول هدم وفوق كل ذلك كله لايجوز أنْ نستورد سلعة من غيرنا إذا كان لدينا سلعة مثلها، ناهيك بسلعة أفضل منها. وهذا ما جعل=

فإشكالية مصطلح العلمانية تكمن في تضادها مع هذه النقاط التي اتسمت بها الخصوصية الثقافية الإسلامية.

١٤ - سبب يتعلق بالعنف اللغوي لمصطلح العلمانية

أشرنا سابقاً إلى أنّ المقصود بالعنف اللغوي هو الإخلال بالبنية القيمية للغة، وباعتبار أنّ اللغة رديف الفكر، فإنّ الإشكالية تبرز حين يقحم مصطلح من مثل (العلمانية) في المعجم الفكري والسياسي إقحاماً، دون وجود أي تواصل معرفي على أساس البنية القيمية، أي عدم وجود تواصل بين الظواهر المتضامنة في كلية القيم التابعة لفعل الخير الذي ترتسمه كل من المنظومة الفكرية والحضارية الإسلامية والمنظومة المادية العلمانية الغربية. فاقتحام مصطلح العلمانية لدائرة المفاهيم والقيم البنيوية للأمة الإسلامية لم يتم على أسس حوارية جدلية تخطو خطوات متفقة عليها، بل مارس مصطلح العلمانية العنف اللغوي على مستويات متعددة أولاها على المستوى المعجمي ومروراً بالمستوى المفهومي والمستوى الفكري انتهاءً بالمستوى الحضاري في تبادل أسباب الانتعاش الحضاري[1].

١٥ - سبب يتعلق ببناء المفاهيم ومصدره التأسيسي

فمعلومٌ أنّ المفاهيم لا ترتبط بلغة معينة، بقدر ما هي مرتبطة ومتأثرة مباشرةً بأسياق اجتماعية وثقافية، وبما أنّ المفاهيم وثيقة الصلة بالمصطلحات كما أنّ المعنى وثيق الصلة

=دعاة الإسلام الأصلاء ينكرون استيراد أيديولوجيات ومذاهب وفلسفات، نبتت في أرض غير أرضنا، لتخاطب قوماً غير قومنا، وتحمل لتفسير الوجود والمعرفة والقيم: فكرة غير فكرتنا، وفلسفة غير فلسفتنا، وتتعامل مع الله والإنسان، والكون والحياة بثقافة غير ثقافتنا) انظر: الشيخ يوسف القرضاوي: **التطرف العلماني في مواجهة الإسلام "نموذج تركيا وتونس"**. دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٨م. ١٠٣.

(١) السيد أحمد فرج: **جذور العلمانية**. دار الوفاء، المنصورة، ط٥، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م. ١٠٦. وانظر: محمد أكرم سعد الدين: **إعتداء الفكر العربي الحديث على ذاته اللغوية/نحو رؤية لغوية معاصرة وفتح باب الاجتهاد**. الجزء الأول، ٢٢٠.

بالألفاظ[1]، فإننا على الأساس المذكور فإنّ مصطلح العلمانية مفهوم يتحدد موقعه ضمن السياق الاجتماعي والثقافي الذي تميّز منه وانطلق منه، وهذا التميّز والخصوصية لأي مجتمع وثقافة يقودنا حتماً إلى التحديد الدلالي المرتبط مباشرة بطبيعة وعقلية وتاريخ وحاجة أي مجتمع[2].

ثم «إنّ أي مصطلح غريب ومفهوم مقتحم لمنظومة المفاهيم لأي مجتمع، يعامل معاملة فيروس دخل المجتمع دون أي استئذان لغياب المناعة (الوعي) من فكر هذه الأمة وبذلك يعيث هذا الفيروس فساداً في المفاهيم والأفكار، ناحيةً المصدر التأسيسي المكوّن والمقوّم لثقافة وحضارة الأمة جانباً، ومحاربةً أصول بناء المفاهيم المعتمد عندهم»[3].

ج - الأسباب الحضارية لإشكالية مصطلح (العلمانية)

لا بدّ أنْ نشير هنا إلى أنّ العلمانية لها أبعاد حضارية أبعد ما تكون عن أبعاد الحضارة الإسلامية وحسب الآتي:

١- للعلمانية نسق عقدي يحدد طبيعة العلاقة مع عالم الغيب وهو يركز على حالة الانتفاء لأي عالم غير محسوس وغير مادي وبالتالي انتفاء مفهوم الإله لديها.

٢- وجود بناء فكري سلوكي للعلمانية في المجتمع مثل التشيؤ والتسلّع والتوثّن وغيرها بحيث يشكل كل ذلك أنماط للقيم السائدة والأخلاقيات العامة والأعراف.

٣- وجود نمط مادي يمثل المبتكرات والآلات والمؤسسات والنظم والعمارة وغيرها من الأبعاد المادية وهذه هي محور الاعتماد العلماني في تفسير الكون والحياة على هذه الأسس المادية:

---

(١) علي القاسمي: **علم المصطلح/ أسسه النظرية وتطبيقاته العملية**. ٧٧٠.

(٢) سيد قطب: **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**. ١١٧. ومحمد عبد الله زرمان: **الخطاب الإسلامي المعاصر وإشكالية المنظومة المصطلحية**. ١٢.

(٣) سمير أمين: **الفيروس الليبرالي/ الحرب الدائمة وأمركة العالم**. دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م. ٩.

٤- تحدد العلمانية نمط علاقتها مع الكون وعالم الأشياء بالمادي المحسوس الصرف دون أي مرجعية غيبية (ما وراء الطبيعة)، وتتعامل مع الكون وعالم الأشياء بالاعتماد على الجانب العلمي والعقلي للمعرفة فقط.

٥- ويتحدد نمط العلاقة مع الآخر في العلمانية على أساس الإقناع العلمي والعقلي فقط دون ذكر لأي لوازم إيمانية وأخلاقية، وأسس التعامل وقواعده يعتمد على ذلك، وكذا أساليب الإقناع والتوجيه[١].

وعلى الأسس السابقة يتحدد الإشكالية الحضارية لمصطلح العلمانية فيما يلي:

١ - سبب يتعلق بالتحيز الحضاري

إنّ النموذج المعرفي للعلمانية داخل النشاط الحضاري الإنساني جاءتْ تحيزاته على حساب تحيزاتنا الحضارية المتكيفة مع رؤيتنا الإسلامية للكون والحياة ودور الإنسان فيهما، فتحيزات العلمانية تأتي من خلال تحيّز للمادي على حساب غير المادي (على نمط الإزاحة الفعلية للنمط الميتافيزيقي)، والتحيّز للموضوعي على حساب الذاتي وغيرها من التحيزات[٢]. بحيث يكون محصلة هذه التحيّزات معاداة النمط الإنساني الشعوري، بحيث يحصل التضاد المؤكد بين هذه وبين خصيصة الإنسانية للإسلام[٣].

---

(١) نصر محمد عارف: **"الحضارة -الثقافة -المدنية" دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم**. ٦١. وعماد الدين خليل: **تهافت العلمانية**. ١٢٤.

(٢) عبد الوهاب المسيري: **فقه التحيّز/ضمن ندوة إشكالية التحيز**. الجزء الأول، ٥٣.

(٣) عن خصيصة الإنسانية للإسلام يقول الدكتور يوسف القرضاوي: "إنّ الإسلام مع ربانيته في غايته هو إنساني أيضاً في الغاية والوجهة ومن هنا نقول: إنّ للإنسان مكاناً، أي مكان في غايات الإسلام العليا، وأهدافه الكبرى.. فتقدير إنسانية الإنسان هو من الربانية التي قام عليها الإسلام. فالله هو الذي كرم هذا الإنسان، ونفخ فيه من روحه، وجعله في الأرض خليفة.. وإذا كان مصدر الإسلام (ربانياً) فإنّ "الإنسان" هو الذي يفهم هذا المصدر، ويستنبط منه، ويجتهد على ضوئه، ويحوله إلى واقع تطبيقي ملموس.. وفكرة الإسلام: أنّ الإنسان لا يستطيع أنْ يكون ربانياً حقاً، دون أنْ يكون إنسانياً، كما لا يستطيع أنْ يكون إنسانياً حقاً دون أنْ يكون ربانياً". انظر: الشيخ يوسف القرضاوي: **الخصائص العامة للإسلام**. ٥٩وما بعدها. وسيد قطب: **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**. ٨٦.

فالعلمانية لها جذور في الإعاقة الحضارية فهي «وفق هذا النسق تعد انحرافاً في التصور الإنساني لمقتضيات الوجود الجوهرية، بل هي تجريد للإنسانية من معنى وجودها، وإيحاء قوي بعبثية الوجود[1] أو هي بتعبير آخر بمثابة تصدُّعات وتشوّهات في البنية الحضارية للأمم على اختلافها..!»[2] فهذا إيغال في التحيزات مما أحدث مثل هذه التصدّعات والتشوّهات.

٢ - سبب يتعلق بالخصوصية الحضارية لمصطلح العلمانية

أشرنا سابقاً إلى أنّ قضية المصطلح –ومنها مصطلح العلمانية- لا يمكن فهمها إلا في إطار المنظومة الحضارية التي ينتمي إليها ويعبِّر عنها، وأنّ تعميم مفهوم أي مصطلح نبت ونما في غير تربتنا وفي غير مناخنا لا تستجلب إلا النقص والسلبية والضمور والانقطاع عن التواصل الحضاري، وهذا ما نتج عندما تم تغييب الخصوصية الحضارية لمصطلح العلمانية حين استخدم سلاح (عولمة اللغة) في إقحام العلمانية في ذاتنا الحضاري وتمكينها من الاستثمار الفكري فيه دون تحرّي الدقة والوضوح في المفهوم حسب الظروف المكانية والزمانية المتوخاة من التعبير المصطلحي[3].

٣ - سبب يتعلق بالتغيير الحضاري ومصطلح العلمانية

من المعلوم أنّ الحضارات تتجدد في إطار منطلقاتها وخصائصها الذاتية، وهذا لا يتم إلا بالانعتاق والاستقلالية في فكرنا ومفاهيمنا ومصطلحاتنا[4]، وبخاصة مصطلحاتنا التي

---

(١) يقول سبحانه: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

(٢) عطية فتحي الويشي: **واقعنا العالمانية وتصادم الحضارات**. دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، نوفمبر ٢٠٠٣م. ٥

(٣) محمد عمارة: **مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية**. ٤٠. وبشير عبد الفتاح: **الخصوصية الثقافية**. ٤٠ وما بعدها وزكي ميلاد مع تركي الربيعو: الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل. دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م. ١٢٢.

(٤) أحمد محمد الدغشي: **إشكالية المصطلحات من المنظور الحضاري**. مجلة البيان، العدد ١٦٦، ١٢٨.

هي تتخطى مرحلة وجودها الدلالي إلى مرحلة الحضور في الجانب الحضاري[1]. أما التجديد والتغيير الحضاري بإغفال الجانب الحضاري عن طريق عدم التحول نحو مرحلة الحضور في مفاهيم المصطلحات يؤدي إلى إقحام مفاهيم غريبة أكثر حضوراً في الجانب الحضاري، فيعمل مثل هذه الحالة إلى تحوير وتبديل باتجاه حضارة أخرى، وهذه الإشكالية التي تبدو جليةً من خلال مصطلح (العلمانية) وآثارها في التجديد والتغيير الحضاري، فيأتي على أسس غير الأساس المنشود ضمن الإطار الفكري الحضاري الإسلامي الذي يصوره الآية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

٤ - سبب يتعلق بالصراع الحضاري بين الأمم

إنّ مما سبق ذكره أنّ إحدى سمات العلمانية أنها تقتات على الصراع بين الثنائيات وهي ما أنْ تلتقي بثنائية الإيمان والإلحاد وهي تختار الإلحاد لتصارع به الإيمان، وهذا واضح جلي في محاربة أي إرادة دينية في الظواهر الحياتية في حياة البشر كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والنفس والآداب والفنون، فهي في صراع لتنحية وإزاحة كل ما هو ديني عن شؤون الحياة، إضافة إلى أنّ العلمانية منتج غربي بامتياز، وهذا ما يفسر انتصار العلمانية لكل ما هو غربي، والتعبير الأمثل لمثل هذا الموقف الحضاري جاء ضمن نظرية صراع الحضارات[2] التي نظّرت لمثل هذا الصراع بين الحضارات بحجة «أنّ الاختلافات

---

(١) مالك بن نبي: **مشكلة الثقافة**. ٢١. ونصر محمد عارف: **"الحضارة -الثقافة -المدنية"**. ٦٠.
يقول الدكتور عماد الدين خليل: (لقد فهمنا الملاحقة أو التنافس الحضاري على أنه نقل عن المتفوقين وليس فعلاً يتحتم أنْ نمارسه بعقولنا وخبراتنا وأيدينا، وأنْ نصوغه من عقيدتنا ورؤيتنا وإيماننا الخاص) انظر: عماد الدين خليل: **الرؤية الإسلامية**. دار الثقافة، الدوحة- قطر، د.ط، د.س. ١٠.

(٢) نظرية صراع الحضارات هي النظرية التي بشّر بها ونظّر لها (صمويل.ب. هانتنجتون) وهو مفكر استراتيجي.. يهودي الديانة.. أمريكي الجنسية- يعمل مديراً لمعهد "جون.م. أولين" للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفرد الأمريكية.. نشر مقالة (صدام الحضارات the clashafcivilization) سنة ١٩٩٣م في مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية. انظر: محمد عمارة: **الحضارات العالمية تدافع؟.. أم صراع؟**. دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ديسمبر ١٩٩٨م. ٢٢. وانظر: عماد الدين خليل: **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**. ١٨٢.

بين الحضارات ليست حقيقية فحسب، بل انها أساسية، فالحضارات تتمايز عن بعضها البعض باللغة والتاريخ والثقافة والعادات وأهم من ذلك الدين. وأبناء الحضارات المختلفة لديهم آراء مختلفة عن العلاقة بين الله والإنسان، والفرد والجماعة، والمواطن والدولة، والآباء والأبناء، والزوج والزوجة..»[1]. ولكن إنْ كان لهذه النظرية فضل، فإنها أقرّتْ بالموقف الغربي في تبني الصراع والتصادم والهيمنة من خلال تحييد الحضارات التي (حيّدها!..)[2].

والإشكالية تقع حين نعتقد أنّ العلمانية سمة حضارية متمدنة، مع انها سمة للتصارع والهيمنة على الحضارات الأخرى، بإفناء خصوصياتها ورغباتها وأهدافها لحساب خصوصيات ورغبات وأهداف الحضارة الغربية[3].

٥ - سبب يتعلق بالحوار الحضاري.. أو حوار الحضارات

إنّ سنة تدافع الحضارات (تقتضي وجود الدفع بين الحضارات أي المنافسة والمزاحمة والدفع نحو الأفضل والأحسن والأكمل، ولأنّ التدافع بين الحق والباطل -أي بين أصحابهما- أمرٌ لا بدّ منه وحتمي لأنهما ضدان، والضدان لا يجتمعان، ولأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته)[4]. فأهل الباطل لا يكفيهم بقاؤهم على باطلهم وإنما يسعون إلى محق الحق وأهله وإزالة هذا الحق بالقوة..، فإنّ أولى مراحل

---

(١) صمويل هنتنجتون: **مقال (صدام الحضارات)**. ضمن كتاب (الحضارات العالمية تدافع أم صراع؟) السابق الذكر. ٢٧.

(٢) محمد عمارة: **الحضارات العالمية تدافع؟.. أم صراع؟**. ٥.

ومحمد جلاء إدريس: **العلاقات الحضارية**. ١٣٢.

(٣) "للإسلام في علاقته بالحضارات الأخرى منهج متميز، فهو يفرق بين ما هو مشترك إنساني عام مما يتعلق بأمور الحياة المدنية والمعارف الطبيعية الكونية والعلوم التجريبية، وبين ما له علاقة بالدين والعقيدة والأخلاق والحياة الاجتماعية والمناهج التربوية التي ترعى المجتمع وتحدد وجهته السلوكية في الحياة". انظر: موسى إبراهيم الإبراهيم: **حوار الحضارات وطبيعة الصراع بين الحق والباطل**. ٢١٨.

(٤) عبد الكريم زيدان: **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**. ٤٦.

هذا التدافع هو الدفع بالعناصر الحوارية بين الضدين، والحوار بين الحضارات يستلزم: الاعتراف المتبادل، والقبول المتبادل، والاحترام المتبادل[1]، واتجاه العلمانية في تبني الصراع الحضاري وليس الحوار الحضاري، بمعنى أنّ التصادم هو محور الاعتقاد الحضاري في الفكر العلماني، فلا قبول ولا اعتراف واحترام لحضارة غير مادية وغير علمانية؛ لأنّ الاعتراف والقبول والاحترام للآخر يعني القبول بالتنوع والتكامل، وهذا ضد الواحدية المادية التي تتبناها العلمنة الغربية.

فالإشكال الحضاري قائم حين تستخدم العلمانية كعنصر حضاري في حضارة لا تعترف بها أو استخدامها وهي لا تعترف ولا تقبل بالحضارة الإسلامية القائمة على تزاوج الروح والجسد، والتنوع والتكامل. ولذا فكيف نتصور العلاقة بين عالمين:

- عالم يتطلع إلى الحضارة، وعالم يحتكر الحضارة لنفسه.
- عالم لا يمتلك قدرات التكافؤ، وعالم لا يرضى لنفسه في أنْ يتكافأ مع من هو أقل منه.
- عالم يبحث عن الاستقلال والاكتفاء الذاتي، وعالم يتعامل مع الآخر بمنطق التبعية والسيطرة، وبعقلية المركز والأطراف.
- عالم يبشر بالإسلام إلى الإنسانية كافة، باعتباره خاتم الرسالات السماوية، وعالم يجد في الإسلام أكبر معوّق أمام نشر ثقافته ومنظومته القيمية في العالم العربي والإسلامي[2].

٦ - سبب يتعلق بالغياب الحضاري أو الانحسار الحضاري

إنّ المشروع الحضاري الإسلامي يستهدف مستوى حضارياً على وجه التحديد، فهو من ثم ليس محاولة روحية أو شعائرية أو سلوكية أو تربوية أو علمية أو فكرية أو ثقافية أو سياسية أو دعوية أو مركبة صرفة.. وإنما هو هذه كلها[3]. وبالتالي التعامل مع هذا

---

(١) محمد عمارة: **إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات**. ٣٨٦.

(٢) زكي ميلاد: **الإسلام والغرب/ الحاضر والمستقبل**. ١٦٧.

(٣) عماد الدين خليل: **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**. دار العربية للعلوم. بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. ٢٣١.

المشروع على أساس واحدٍ من العناصر المذكورة فقط، يسبّب لا ريبَ غياباً وانحساراً حضارياً مؤدياً إلى انقطاع للاستمرارية الحضارية , والعلمانية حين تضع حدوداً للدين في جانبه الروحي أو الشعائري، تتناسى وتهمل الجانب الحضاري في الإسلام كدين رباني، وأن مشروعه الحضاري يعني إعادة صياغة أمة بكاملها وتعديل انحرافها إن انحرفت، وبعث روح الإبداع والحركة في مواتها. وهنا تخطيء العلمانية في عدم فهمها للمشروع الحضاري الإسلامي الذي «يتوجه صوب فضاء واسع هو فضاء الأمة الإسلامية على امتدادها في الزمن والمكان.. في التاريخ والجغرافية.. ويضع نصب عينيه أنه ليس مجرد سعي مرحلي أو حركة متموضعة في بيئة محددة أو لحظة زمنية (وإن كان يبدأ منهما)..»[1].

٧ - سبب يتعلق بالتغريب في المجال الحضاري

إنّ خروج العلمانية الليبرالية الديمقراطية منتصرة في الحرب الثقافية والسياسية والفكرية ضد الشيوعية، وكسبُ النظرية الرأسمالية الاقتصادية حربها ضد الاشتراكية، جعل العلمانية الليبرالية الديمقراطية تشعر بنشوة النصر والاندفاع إلى حدّ التهوّر ضد المنظومات الحضارية الأخرى، وكان الإسلام أحد أهم الحضارات في هذه المواجهة، وهذا ما دلّت عليه نظرية صدام الحضارات فاتحدتْ في مراحلها الأولى، من هذه المواجهة مع المثقفين الماركسيين السابقين وربما بعض الوطنيين العلمانيين لتشكل جبهة تتجه سهامها ضد عدد من ثوابت الإسلام[2]. وكانت أداته التغريب والتبعية، فالتغريب الحضاري يتم من خلال تفعيل عناصر تلفيقية تحريفية إلى حضارة الإسلام، ومحاوره كثيرة تبدأ من المنبع وهو القرآن الكريم والتفسيرات التي تطالعنا ثمرات المطابع بقلم أولئك الذين يحاولون لبس قناع العقلانية والتنوير في تفسير القرآن بتفسير عصري يلائم علمنتهم المغطاة بالأسلوب الفكري والبحثي، مروراً بتحييد الشريعة لأنها لا تستطيع أنْ تواكب سرعة المتغيرات العالمية التي تكاد تمسّ

---

(١) المصدر نفسه. ٢٣٢.

(٢) منير شفيق: **النظام الدولي الجديد وخيار المواجهة**. الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م. ٧٧.

حياة كل بشر!!، ثم مروراً بالتربية والإعلام، حتى رأينا التغريب نتج عنه التبعية الفكرية والثقافية والحضارية، وأصبح لدى شريحة من (المسلمين!!) أنّ ماضي الإسلام لا يمكن أنْ يسمى حضارة بحضور حضارة الغرب وقوته - وخاصة إذا علمنا أنّ الصراع في هذه الميادين غير متكافئ من ناحية الوسائط المستخدمة من أجهزة تربوية وإعلامية أو إمكانات ثقافية من المدرسة إلى الجامعة. إذن نصل بعد مرحلتي التغريب والتبعية إلى مرحلة (العلمنة البنيوية الكامنة). «وهذا ما يفرض أنْ تبذل عناية خاصة وجهود كبيرة للمواجهة في ميادين العقيدة والثقافة والقيم والحضارة وسيأخذ هذا التحدي ألواناً كثيرة بعضها شديد المكر، وقد أخذ أشكالاً مركبة، فبعضها سيُعلي من شأن المنفعة الضيقة والمصالح الفردية والفئوية، وبعضها سيخاطب الغرائز البهيمية مباشرة ليحرض ضد قيم الدين وأخلاقه، وبعضها سيعتمد على أغراض السوق بنوع من الأعمال، واستبعاد الصوت الآخر وتجاهله، أو كبته، أو مقاطعته وفرض العزلة عليه»[1].

٨ - سبب يتعلق بالتأصيل الحضاري

إنّ العلمانية مفهوم غير متأصل في الإسلام، وحضارة الإسلام غنيّ عن تحمل نتائج الطغيان الكنيسي الذي ولد وبرّر لظهور العلمانية في الغرب باعتبارها نتيجة لفعل حضاري غربي آثر الانقلاب على نمطه الحضاري العتيق كعلاج لما كان يعانيه من هذا النمط، لكنّ هذه المعاناة لم تجد لها أثراً في المجتمع الإسلامي حتى يبرّر فيه العلمانية، بل بالعكس كانت للعلمانية مثالب في المجتمع الإسلامي سواء في الحكم والسياسة أو في الاقتصاد أو في الإعلام أو في التربية ما يُغني عن الاستدلال بها لوضوحها، فعدم أصالة العلمانية في الكيان الحضاري الإسلامي قادت إلى أكبر إشكالية فكرية حضارية تشهدها الأمة الإسلامية وهي بذلك تعتبر أكبر تحدي حضاري تشهدها أيضاً الأمة الإسلامية لكمونها في بنية الانسان المسلم[2].

---

(١) المصدر نفسه. ٧٦.

(٢) محمد عبد الله زرمان: **الخطاب الإسلامي المعاصر وإشكالية المنظومة المصطلحية**. ٦١.

٩ - سبب يتعلق بالوعي الحضاري بقيمة مصطلح العلمانية

إنّ الوعي بالذات والإدراك الجيد لموقع المجتمع المجتمع الإسلامي في سلم الحضارة من أهم ما ينبغي أنْ يتوفر للمجتمع الإسلامي، مع الإحاطة الكاملة بإمكاناتها ومشكلاتها. وهذا الوعي لا يمكن اكتشافه بشكل حسن إلا من خلال مجموعة الثوابت التي توفر لنا الإطار المعرفي المبدئي الذي ستنطلق منه، وليس ضمن إطار غريب وشاذ عن الإطار المعرفي للمجتمع، فالمجتمع الذي يملك الوعي بذاته يدرك خطورة الانحرافات التي تستهدفه في الصميم[١]، والوعي بالدور السلبي للعلمانية في إطارها المعرفي هو أحد متطلبات الوعي الحضاري، والإشكالية متحققة حين نندفع نحو العلمانية دون تصور وإدراك أنها طريقة مثلى للخروج عن الفطرة وعن طاعة الله وتنكر للخالق حين ادعت أنها ليست بحاجة إلى وصاية الدين أو حماية الأخلاق[٢].

١٠ - سبب يتعلق بقوة الحضارة الإسلامية وحضارة القوة التي أفرزت العلمانية

إنّ من المعلوم أنّ الحضارة الغربية أفرزت العلمانية كنتاج لسيرتها مع معطيات مجتمعاتها وعقائدها، فكما أشرنا سابقاً أن الحضارة الغربية المعاصرة قامت على قاعدتين هما:

أ-قاعدة العنف الذي اتخذ، وما زال يتخذ كأولوية في بنيتها التكوينية الأساسية، وقد ترجم هذا العنف كما لاحظنا سابقاً في العلمانية، فهي عنيفة في إلغاء غيرها، مقتحمة أسوار مفاهيم الآخرين غير مبالية بالمنظومات الفكرية والحضارية لغيرها، وتنكر الحقائق مهما كانت مهمة ومصيرية ما دام لا يستند إلى الفلسفة المادية التي تتبناها.

ب- نهب الثروات والسعي لجني أقصى الأرباح، وهذا ليس غريباً فهي لا ترى غير المادة والقوة من معالم الفلسفة المادية وبخاصة الرأسمالية الليبرالية[٣].

---

(١) عبد الكريم بكّار: **من أجل إنطلاقة حضارية شاملة**. ١٩٠.

(٢) أنور الجندي: **مَعْلَمَة الإسلام**. المجموعة الثالثة. ٤٧٤.

(٣) منير شفيق: **الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر**. ١٦٣ و٦٨.

إذن فجوهر العلمانية لا ينفكّ عن جوهر الحضارة الغربية العنفي النهبي الاستغلالي، ولا عجب في ذلك، باعتبار العلمانية ربيبة الحضارة الغربية. وفي تجربتنا نحن المسلمون مع العلمانية، لم نرها تتسلل إلى أوطاننا إلا مع المستعمِر، أو من ولع بتقليد المستعمِر وأعجب بقوته لا بحجته، فبينما كانت الجزائر تدكّ بالمدافع ويقتل منها الألوف، كان علمانيو الشرق والعرب ممن يدرسون في فرنسا معجبين بها وبطريقة ونمط حياة الغرب فأيّة إزدواجية يحملها!!؟؟[1] أو سماه أحدهم بـ(العقوق الحضاري)[2] فنعم المصطلح للتعبير عن هذه الحالة من التراخي بل من خيانة.

المطلب الثاني: نتائج إشكالية مصطلح (العلمانية)

أ - النتائج الدلالية لإشكالية مصطلح (العلمانية):

أشكل أمر مصطلح العلمانية دلالياً، فكانت بطبيعة الحال تعقبها نتائج فكرية حضارية، فمن أهم النتائج الدلالية لإشكالية مصطلح (العلمانية):

١- ابتعاد دلالة (العلمانية secularism) عن أصلها الوظيفي، حين نسبتْ -خطأً- إلى العلم، فالتبس أصل معناه المعجمي مع ما نقله أول من استخدمه في معجم باللغة العربية ملتبسة بمعنى العلم وليس (اللادينية) المعروفة أصلاً ضمن دلالته الأصلية[3].

٢- انعدام سمة التوافق والاصطلاح في المجتمع الإسلامي لمصطلح العلمانية؛ لأنه ببساطة ليس من إفرازات هذا المجتمع، وإقحامه ضمن دلالات عرفية غريبة.

---

(١) محمد محمد حسين: **الإسلام والحضارة الغربية**. ٢٤ وما بعدها.

(٢) عطية فتحي الويشي: **واقعنا بين العالمانية وتصادم الحضارات**. ١٥.

(٣) عبد الصبور شاهين: **ملحق (العلمانية تاريخ الكلمة وصيغتها)** ضمن كتاب (جذور العلمانية) للدكتور السيد أحمد فرج. دار الوفاء. المنصورة، ط٥، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م. ١١٧. وانظر كذلك: السيد أحمد فرج: **ملحق (عَلْماني وعَلْمانية/ تأصيل معجمي)**. ضمن كتاب (جذور العلمانية) ١٢٩. وعدنان الخطيب: **ملحق (قصة دخول (العلمانية) في المعجم العربي)**. ضمن كتاب (جذور العلمانية). ١٤٦.

٣- انتفاء النفع والاستفادة من عملية الترجمة لمصطلح العلمانية حين فقد الكثير من دلالاته نتيجة عدم التمحيص أو التدقيق، ما نتج عنه عدم أدائه لدوره الدلالي والمفاهيمي بصورة علمية وعملية مجردة، دون الدخول في إطار الغموض وعدم الوضوح ومن ثم التلبيس.

٤- فقدان الأصل الدلالي لمصطلح العلمانية نتيجة عدم الإلمام التام بسيرته في أصله اللغوي الذي جاء منه، وبذلك نتج عدم بالقيمة المفاهيمية للمصطلح المؤدي إلى إشكاليات كبيرة.

٥- إنّ إنتفاء النفع والاستفادة من عملية الترجمة ومن ثم دخول مصطلح (العلمانية) دائرة الغموض والاستغلال الفكري لكُنهه لعدم وجود رابطٍ بين المفهوم والواقع أدى بالتالي إلى غموض فكري والتباس في المفهوم والدخولٍ في دوامة جدلية غير مقنعة ضمن صراعات الأصالة والتبعية.

٦- انحراف دلالة المصطلح نتيجةً لانحراف مدلول مصطلح (العلمانية). ودالّه باقٍ كما هو، وهذا حادثٌ حين تمّ إسقاط مدلول (العلم) على دالّ (secularism) دون أنْ يمتّ إلى المدلول الأصلي (اللادينية) بأيّة صلة.

٧- عدم إدراك الذات المصطلحية لمصطلح (العلمانية) حين أُعمِل فيه التجوّز في إيراد معناه ونقله من حقله المعرفي الغربي إلى الحقل المعرفي الإسلامي وما بينهما فروق واضحة في المنطلقات والوسائل والأهداف.

٨- نشوء حالة من التشابك بين مفهوم (العلمانية)، وبين المفاهيم السائدة في المجتمع الإسلامي نتيجة الأصابة بحالة من الذهول وعدم السيطرة على الذات في مستويات متعددة وفي أزمنة متقاربة نتيجة السرعة الفائقة في تخطّي الحاضر إلى المستقبل أو المنشود من المستقبل.

٩- نشوء اختلاط في مفهوم (العلمانية)، وبخاصة بين مفهومي (اللادينية) و(العلم) بسبب عدم تجريد مصطلح (secularism) من الظلال الدلالية التي يضفيها المترجِم أو

المستقبِل أو الشارح، فمن الطبيعي أنْ ينحاز هذا المترجِم إلى ما يهواه في العلمانية التي هو يريدها وليس التي هي كما هي في أصله اللغوي الوضعي.

١٠ - وجود فوضى اشتقاقية في إنشاء مصطلح (العلمانية) حين نقل من (secularism) لإضفاء شرعية لغوية صرفية على بنائه الاشتقاقي، رغم انعدام المعاجم العربية الأصيلة لجذر يحمل مفهوماً مطابقاً لـ(secularism)[1].

١١- نشوء اصطراع دلالي بين مصطلح (العلمانية) وبين مصطلحات البيئة التي ينقل إليها حين تفرض وتقحم في المنظومة الفكرية والحضارية السائدة في هذه البيئة المنقولة إليها.

١٢- الاعتماد على أنظمة مرجعية دون أخرى في تحديد دلالة مصطلح العلمانية، لتبويب مفهومه ضمن حقلٍ دلالي يلتمس فيه المعنى التام، فنلاحظ التركيز على المرجعية الصرفية في إضافة (ان) و(ية) للدلالة على المصدر الصناعي، دون المرجعية الدلالية المفهومية لدراسة أصل وسيرة المصطلح، مما أدّى إلى تشويش فكري واضح إزاء هذا المصطلح.

١٣ - إنّ عدم السيطرة على مفهوم مصطلح (العلمانية) من بداية ترجمته ونقله، أدّى إلى تقادم الوضع الذي نُقِل على أساسه على قاعدة (الخطأ المشهور خيرٌ من الصواب المهجور)، مما ولّد بعد ذلك نشوء مصطلحات مرتبطة بالعلمانية ضمن حقول متشابكة متخصص في شأن العلمانية.

١٤ - عدم الموائمة بين اللفظ الموضوع (العلمانية) لِلمصطلح (secularism) الوافد، مما أدّى إلى وجود اختلالٍ وظيفي للفظ والمعنى معاً، باعتبار أنّ المعنى غريب عن اللفظ الموضوع له.

١٥ - الفوضى المصطلحية الذي فرضه تدخُّل أنساقٍ فكرية للحضارة الغربية في توجيه دلالة مصطلح (العلمانية) ليتوافق مع توجهات هذه الحضارة التوسّعية، وفرضها دون الالتزام بالمنهجيات المتبعة في تحديد المفاهيم والدلالات للمصطلحات عامة.

---

(١) السيد أحمد فرج: **ملحق (علماني وعلمانية/تأصيل معجمي)**. ضمن كتاب (جذور العلمانية). ١٤٢. وانظر: **ملحق (قصة دخول (العلمانية) في المعجم العربي)** للدكتور عدنان الخطيب. ١٥٢.

ب - النتائج الفكرية لإشكالية مصطلح (العلمانية):

إنّ مما سبق ندرك وصول إشكالية مصطلح العلمانية إلى مستوى الإشكالية الفكرية، ونتج عن ذلك:

١- اعتناق بعض المسلمين لمفهوم العلمانية نتيجة التسطيح الفكري في كيفية التعامل المفهومي مع العلمانية مع تلك الإشكاليات الدلالية التي صاحبتها عند الترجمة، فلم يُتصوّر العلمانية تصوّراً كاملاً لسائر أبعاد العلمانية، بل يصوِّر سطحه الخارجي وحده، وسطح الشيء جزءٌ منه لا كلّه.

٢- تمييع قضية الفكر الإسلامي والصراع القائم مع الفكر الغربي، والانصهار في شبكة دوال (مصطلحات) غربية، على الرغم انتهاء صلاحية الكثير منها في بلاد المنشأ، نظراً للتغيير الحاصل في ظروف وملابسات نشأة المصطلح.

٣- التحيّز للفكر الغربي، وقد يكون أغلب التحيزات غير واعية كامنة في البنية الأساسية في المجتمع نظراً لعدم الشمولية في التفكير والافتقار إلى الدقة والتوافق المنهجي للفكر الرباني، مما يفقدها صفة الربانية - لرفضها إياها- قافزة على البراهين والنواميس الكونية.

٤- التحسين والتقبيح على منهج نقدي لا يلتزم بحيثيات الرؤية النقدية الإسلامية، وتنبذ المناهج التي تعتمد على الوحي في إجراءات المنهج، نتيجة اتباع فصل الدين عن مناحي الحياة ومنها الرؤية النقدية.

٥- غياب الخصوصية اللغوية والثقافية وبالتالي الخصوصية الثقافية والحضارية للمصطلحات، حين بشّرت العلمانية بما عُرف بـ(العولمة اللغوية)، مما ولّد بلبلة وخلط في المفاهيم واهتزازات في الشخصية واضطراب وتبديل في مفاهيم القِيَم الضابطة لمسيرة الأمة.

٦- التعبير بلسان الآخر (الغربي) باستخدام مصطلح (العلمانية) وبالتالي المفهوم العام للعلمانية، وبالتالي التفكير بعقل الآخر، وكأنّ عقولنا مخدرة وغير واعية وليست أهلاً للتفكير.

٧- عدم معرفة الآخر وعدم إدراك خطابه، مما جعلنا نتعامل مع مجهول وكأنه معلوم حين تناسينا ظروفه التي أوجبتْ نشوء مثل مصطلح (العلمانية)، وكأننا نعتمد على ما يأتينا جاهزاً ومعلباً ومغلفاً دون إدراك طبيعة نشوئه وكيفية نشوئه وأسبابه...

٨- فهم التجديد على انه انقلاب على النظام العام والنسق الاجتماعي وتحويله من حالٍ إلى حال، وهذا ما سعى إليه العلمانيون فحاربوا المظاهر الإسلامية والمفاهيم الإسلامية كتوسيع مفهوم العبادة مثلاً ليشمل كل معروف في الحياة.

٩- انشغال أكثر الفكر الإسلامي واهتماماته بالوسائل أكثر من الغايات، وبالتاريخ أكثر من الدين، وبالرجال أكثر من المبادئ، وبالأحداث أكثر من القيم وبالتقاليد أكثر من المفاهيم.

١٠ - الإصابة بالازدواجية والنفاق الفكري في خضم التصارع بين الأخطبوط العلماني والأصول الفكرية المنهاجية للمسلمين رغم أنه قد استفرغ من بيضته، فالعلمانية اتخذت من مؤسسات الدولة وسيلة لفرض نفسها على المجتمع، وبقي فكر المسلمين يعتمد على الدعوة والإرشاد دون وجود مؤسسي في نظام الدولة.

١١ - فقدان الأصالة حين عمدت العلمانية إلى تحكيم الزمنية في كل ما يشرع ويسنّ من القوانين فلا إلتفاتة إلى الماضي، وبالمقابل لم يستطع المجتمع المسلم معاصرة النظم العلمانية الغربية فنتج هجين مسلوب الإرادة فاقد الإستقلالية والثبات.

١٢- تفريغ المصطلحات الإسلامية من مضامينها الدينية وتحويل مدلولها إلى نمط علماني يخدم فلسفته المادية، وهذا يعني اجتماع الضدين، وهذا واضح في التفسيرات المعاصرة والقرارات التجديدية للقرآن الكريم والفقه الإسلامي وعموم الدين الإسلامي.

١٣ - فقدان الوعي بمصطلح العلمانية وإدراك خطورته وهذا نتج حين فُقِدَ الوعي المصطلحي في الخطاب الإسلامي وخصوصيته الفكرية والحضارية، فاختلّتْ بذلك موازين تحديد أولويات الأمة في ترتيب القِيَم.

١٤ - التعدي على الذات اللغوية والدلالية للمسلمين حين اقتحمت (العلمانية secularism) المجال المفاهيمي دون أنْ تلتزم بالأسس اللغوية والصرفية والمصطلحية من خلال عملية عنف واعتداء وفوضى موجّهة ضد المنظومة الفكرية والمفاهيمية، وذلك واضح في الاضطراب الدلالي بين (اللادينية) و(العلمية).

١٥ - الإصابة بكسل مصطلحي بمعنى استهلاك مصطلحات الغرب الجاهزة دون الالتجاء إلى أكمل المصادر التأسيسية للمفاهيم، والاستسلام لمنطق الغرب في العلمانية ومفاهيمه، وبالتالي استكمال عمليات الاختزال للمصطلحات والمفاهيم الإسلامية حين أفرغت من مدلولاتها الربانية، تحقيقاً للمبدأ العلماني الأبرز بفصل الدين عن الحياة أو حتى أبعد من ذلك بفصل الدين عن دوالها التي سميت بها.

ج - النتائج الحضارية لإشكالية مصطلح (العلمانية):

إنّ داء العلمانية حين اقحم نفسه في دائرة المفاهيم والأفكار، أمسى ينخر في جسد الحضارة الإسلامية، محاولاً تنحيته من تاريخ الحضارات الحية في عصرنا الحالي، فكانت نتائج الإشكال العلماني الحضاري:

١- التحيز للحضارة المادية التي تجعل من المادة إلهاً مقدساً، ولا تلتفت إلى تحيّزات أخرى فكانت العلمانية المبشرة بحضارة تتحيّز للمحسوس على حساب غير المحسوس، والمادية على حساب الروحي، فكانت العلمانية الأداة الطيّعة في نشر فلسفة الحضارة الغربية ومضمونها المادي.

٢- الاعتقاد بكمال المصطلحات الغربية وبخاصة العلمانية، حين رأى فيه بعضهم الحل السحريّ لمشاكلنا، مع أنّ العلمانية والنظم التي تبنتْها في الحكم في البلاد الإسلامية والعربية بخاصة أجرت الويلات على الشعوب وأذاقتها الأمرين في الفساد والظلم والتنكيل والاستحقار وإهدار كرامة الإنسان[1].

(١) في اليوم الذي كنت مشغولاً في كتابة هذه السطور، سمعت من الأخبار ونحن نتابع أخبار=

٣- انتاج حالة من الفكر التلفيقي الذي يحاول إقحام العلمانية في الذاتية المسلمة، وكأنه يسبح ضد التيار، باعتبار أنّ العلمانية لم ولن تتوافق مع الخصائص الذاتية للمجتمع الإسلامي التي تنبع منها منطلقاتها الفكرية والمعرفية للبناء الحضاري، وهذا التشابك المصطلحي كان بين حضارتين متضادتين في كل شيء[1].

٤- عدم الاعتراف بوجود صراع مصطلحي، مردّه صراع الغرب الحضاري مع غيرها من الحضارات وبخاصة الحضارة الإسلامية التي تبنت التدافع الحضاري للخروج من هذا المأزق. وعدم الاعتراف بوجود هذا الصراع هو من قبيل التغافل عن أبرز المظاهر الحضارية في عصرنا الحالي.

٥- فقدان السيطرة على الضوابط اللازمة للحوار بين الحضارات والهدف من هذا الحوار، حين أصرّت الحضارة الغربية على تحكيم رؤيتها العلمانية وعدم استعدادها الاعتراف بوجود غيبي، أو حتى احترام إعتقادنا بالغيب، فكان سوطها الفكري (العولمة) تدكّ البناء الحضاري للحضارات الأخرى.

٦- الانكسار وإهدار كرامة الإنسان، والتعامل الفوقي مع الشعب بسبب التطبيق العلماني الذي لاقى قصوراً شديداً في تنمية الإنسان وتحقيق أحلامه دون إهدار لكرامته، وعلى الرغم من ذلك لم تعترف العلمانية بذلك القصور والواقع المؤلم؛ لأنّ أُولى مراتب النهوض -كما سبق وأشرنا- هو الاعتراف بالواقع المؤلم ثم التخطيط للنهوض والنمو وهذا ما نفتقده، بسبب استعلاء النخبة العلمانية التي ما برحت تتذاكى على الناس وأصابها العُجب ولا ندري لأيّ شيءٍ تتذاكى وتعجب!!؟؟

٧- نشوء حالة هجينة من الفكر المحسوب على المسلمين وليس الإسلام، تصطدم بكل ما هو أصيل، تتخذ من الإعلام وسيلة أخطبوطية في نشر مادته الهجينة من شكل إسلامي ومضمونٍ مادي غربي.

=الأحداث في سوريا سمعت أن (أدونيس) الملحد العلماني نصح الشعب بعدم اتباع الفكر الديني!!! وأتسائل هنا: هل استفاد الشعب شيئاً حين حكمه العلمانية حتى يختارها مرةً أخرى !!!؟؟ وانظر: محسن عبد الحميد: **المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري**. ٩٨.

(١) محسن عبد الحميد: **المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري**. ٨٩ وما بعدها.

٨- التلبيس والغموض في المفاهيم الحضارية التي تفتقر إلى جماع الروح والجسد، والعقل والقلب غير ثابتة في المنهج الحضاري، ولا تمتّ إلى السماء بصلة، فلا تهتم بخالقٍ يُعرف، ولا بإلهٍ يُطاع، وهمّها الأول والأخير نشر العلمنة لتحقيق الكينونة الغربية على أرضٍ إسلامية.

٩- اللاوعي بالانكسار الحضاري نتيجة عدم الوعي بالخصوصية الحضارية للمصطلحات، الناتج بدوره عن الافتقار إلى معرفة الذات ثم معرفة الآخر، حيث فقدنا السيطرة على زمام الحضارة والعلمانية هي من تتحكم باعتبار ما هو حضاري أو غير حضاري حسب مقتضيات الفلسفة المادية..

١٠- الاستسلام للطبيعة العنفية التي اتسمت به العلمانية، حين فرضت نفسها بحضارة القوة التي ساندتها، واتخذت هذه الطبيعة العنفية أشكالاً أهمها العنف الفكري والتلبيس في المفاهيم الحضارية.